عدةُ أسبابٍ للقسوة

قصص قصيرة

LEVANT

عنوان الكتاب: عدة أسباب للقسوة (قصص قصيرة)
المؤلف: عبد الحميد البسيوني

الطبعة الثالثة: 2020 م

© جميع حقوق الطباعة والنشر الورقيّ والإلكترونيّ محفوظة

مركز ليفانت للدراسات الثقافية والنشر

ملف ضريبي: 03- 11- 520- 00408- 5- 022

س ت: 9882

الإسكندرية، مصر، 44، شارع سوتير، أمام كلية حقوق الإسكندرية

الدور الثالث، الإسكندرية، مصر

موبايل: 01030036491 هاتف: 002 034830903

بريد إلكتروني: levant.egsy@gmail.com

موقع إلكتروني: www.levantcenter.net

رقم الإيداع: 9503 /2020

الترقيم الدوليّ: 978-977-6815-09-4

إخراج وتنسيق وتدقيق لغوي: القسم الفني في مركز ليفانت
تصميم الغلاف: إيهاب رشدي

عدةُ أسبابٍ للقسوة

قصص قصيرة

عبد الحميد البسيوني

مركز ليفانت للدراسات الثقافية والنشر، 2020م

الإهداء

إلى

أرواحِ الموتى من عشيرتي؛

حتّى يكفّوا عن زيارتي ليليًا..

الجزء الأول

حكايةُ العضلةِ القابضة

متتالية قصصية

(1)

ها هي ذي البنت الجميلة إذن، جاءت فانتعشت الأشياء من حولي، تفجّرت الحياة في نسغ الشجيرات الجافة المحيطة، وازدهرت الحدائق، جاءت.. فجلست إلى جواري، كنت أسند ظهري إلى جذع شجرة عجوز، وكانت هي تلبس الجينز والبلوزة المنقرشة المزيّنة بالورود والتماسيح الصغيرة، جلست.. استراحت وقالت لي: نهار جميل، فقلت لها: ها هو ذا زادك وزوادك: ضرورة الفن لفيشر.

رائحة اللحظات لبهيجة حسين، وديوان فقه اللذة لحلمي سالم، وهذا عدد من مجلة فيه قصة لي، فحلت شعرها على الفور وقالت: قصة لك.. أنت كاتب فاجر.. لكن خلاياها قد تفتحت الآن؛ حيث أن شعرها الأسود الطويل قد تكاثر فجأة، وبدا كأنه شجرة صفصاف فوق المكان، واستطال جسدها الممشوق الجميل مثل شجرة جميز ضخمة، وهي التي كانت قد قالت لي: أكره المرأة التي لا تحافظ على جمال جسدها.. أنا دلوقتي بعمل ريجيم قاسي.. أنا دلوقتي بقرا كتير خالص.. وبكتب قصايد كتيرة.

هي الآن.. بدأت تتكلم، وسيصمت الكون؛ ليستمع معي، ربّما يزعق أحد النوارس من بعيد، لكنه سرعان ما سيكفّ، إلّا إنّ

السفن التي تعبر أمامنا في طريقها إلى السويس أو بورسعيد سوف تكف بالتأكيد وهي تقول: مثلًا، مثلًا.. يعني أنا دلوقتي نفسي أقلع هدومي أنط في الميه.. أو أقلع هدومي وأنط في حضنك.. نفسي أقرا كل الشعر إللي في العالم كله مرة واحدة.. كنت أتطلع إلى ذؤابات الأشجار الكثيفة من حولي فأراها ترتعش، تنتفض من ذبذبات صوتها الموغل في رقته وتزداد اخضرارًا وازدهارًا، وفي هذه اللحظة بالذات كان لابد أن أقرر: سوف أسحب هذه البنت الجميلة من يدها، ونلفّ وندور في أرجاء المدينة.. بيوت منشية الشهداء (عرايشية العبيد).. بيوت حي السلام، (الحكر) بيتًا بيتًا وحارة حارة، حتّى تمسّ بكفها الصغيرة الجميلة البيوتَ والناس، فتنفجر الحياة والخضرة في قلب الموت المزمن. كنت أقرر وأنا أهتف: الوقت كلّه لهذه البنت الجميلة.

(2)

"عيناك جميلتان هذا النهار".. هكذا قالت البنت الجميلة، وهي تنظر مباشرة في عيني.

كان ذلك مؤثرًا جدًا.. ثم أنّها أكملت: مثل عيون القطط، وراحت ترسم فوق جزء من ورقة أمامها حرف T وهي تؤكد أن عيني تشبهان عيني قط، وقالت: إنّني أرى نفسي فيهما.

كانت قد جاءت في ميعادها بالضبط؛ فوقفت أنا، وهتفت بأنني أحب جدًا المرأة التي تحترم مواعيدها، فقالت: موافقة، ولكنني لست امرأة بعد، ثم أردفت وهي تجلس مرهقة.. ولكن ما الفرق؟ كنت قد تناولت منها الكتب والحقيبة وتعبها وشكواها المرة من معاملة الأسرة لها، وكم أصبح العالم فظيعًا لا يطاق! وأكّدت لي قرارها بأنها لابد أن تدرس في أكاديمية الفنون، أو تشتغل؛ حتّى تتخلّص من قيود البيت وسخف الأب، الذي لا يمكن أن يفهمها، وأنّ في داخلها بركانًا لابدّ أن ينفجر، وأنها تحبني على الرغم من كلّ شيء، وأنها لن تتزوج أبدًا؛ حتّى لا يستحوذ على مشروعها رجل تافه، وقالت بقرف: سوف يعبث بجسدي من دون جدوى، ذاك التافه. سوف أطبخ وأمسح، وأنجب له أطفالًا يحملون اسمه، وهو يعبث بجسدي.

كنت قد طلبت لها حاجة ساقعة، مثلما رغبت وطلبت لي زجاجة بيرة، لكنها احتجت: هل تشرب على الصبح؟ أنا لا أحبك.. هل تعرف لقد تخيلتك أمس، وأنا في المطبخ، لك جسد جميل، لذلك قد جردتك من هدومك – تمامًا – وأخذت أتأملك.

أنت تعرف أنا أحب الجسد المستوي.. أكره أي قطعة لحم زائدة زيادة في أي جسد.. وعلى فكرة جسدي أنا جميل جدًا وأنا عارية.. وأجمل ما فيه أنّه لم يظهر على شاشات أي رجل في العالم، حتّى أنت، الرجل الذي أحبّ جسده، هل يمكن لجسدينا أن يتحابا؟ لماذا ثلاثة أرباع الأدب العربي يخاف الجسد؟ هؤلاء البلهاء.. أنا سأكتب كثيرًا عن أدق تفاصيل الجسد.. جسدك يا حبيبي.. هل تسمح؟ وحتّى إن لم تسمح سأفعل ذلك.

أعرف أنك ستقول كيف تكتبين عن جسدي من دون أنْ تعرفيه، أعرف أنك شقي.. لكن اطمئن يا سيدي، سوف أتأكّد في الوقت الملائم، ساعتها ربّما أسمح لك، بأن تعبث في جسدي، فأنا أعرفك على الأقل.. ألست معي بأن العالم بات فظيعًا. ألست معي؟ هه؟ عيناها هما الجميلتان. سوادهما ليل دامس وبياضهما زبد داكن. قلت لها: في عينيك حور، قالت بسرعة: أنا في عينيّ حول؟! إخص عليك وضحكت.. وكانت أسنانها بيضاء ومرصوصة بعناية فائقة، وفمها شهواني، وكرتاها صلبتان

وضئيلتان، وكفها الوردي الدافئ الصغير ينام مستريحًا في جسدي، قالت لي بخوف: إنّ العالم فظيع، وإن الشر هو الذي ينتصر في النهاية – غالبًا – بعكس ما تؤكده الأفلام العربية والأمريكية الشريرة، التي أضحت تمسك العالم كله – الآن – بخيط رفيع تحركه في الاتجاه الخاطئ دائمًا، وبعكس اتجاه روحي.. روحي قد زهقت خلاص من كلامك الجميل وأصابعك الجميلة برضه، التي أضبطها دائمًا تقاضيني في المنام وتلعب في شعري، الذي لم تره حتى هذه اللحظة بسبب الإيشارب، الذي تحمله أنت أكثر مما يحتمل.. هل ترغب – الآن – أن أخلع كل شيء أمام الناس جميعًا، هكذا، لكي تراني؟ ثم أنها قامت – بغتة – تلك البنت الصغيرة الجميلة، ووقفت فوق رخام المنضدة، وأخذت – في بطء شديد – تخلع ملابسها قطعة.. قطعة أمام العالم – مثلما قالت – وكان جسدها جميلًا وبضًا وبكرًا ومستويًا جدًا، أي ليس به قطعة لحم زائدة.

(3)

كان ذلك فوق الاحتمال، فكّر في ذلك، وهو يسير في شوارع الإسماعيلية الكئيبة من شدة جمال فتاته، بالضبط في اللحظة التي وصل فيها إلى الكشك الخشبي أمام الفندق في السلطان

حسين، وجدها، كان ظهرها له، وهي منهمكة في مكالمة تليفونية، فتمكن من سماع بعض الجمل، كان سيشتري السجائر، ويصعد إلى بهو الفندق، حيث يجب أن يجدها قبله بخمس دقائق على الأقل، لكنها الآن تتكلم من دون أن تراه، أرعبه أنها تنطق نفس الكلمات تقريبًا التي تقولها له في التليفون، وبسرعة لم يعد يرغب في سماع المزيد، بدأت تهرب من جسده في تلك اللحظة مثل بداية تسرب الغاز من أنبوبة على وشك الانفجار، هل أراحه ذلك؟ هي لابد ستترك فراغًا في هذا الجسد وعليه أن يبحث عما يعوضه، ولأن هذه المدينة شديدة البخل وفارغة مثل كهف من العصور الوسطى فإنه صعد بسرعة السلمات وجلس فوق منضدتهم المعهودة، جاء هاني – النادل الجميل – ووضع أمامه طبقًا صغيرًا به حبات فول سوداني لامع كأنها عيون حيوان بحري تنظر إليه، وزجاجة بيرة، ثم جاءت هي، وأدهشته حين وجدها مختلفة عن المرات السابقة، هل لأنه يراها لأول مرة وهو جالس؟ أم لأنه قد سمع الكلمات، وهي تقولها لغيره، مثل فلاح ضبط زوجته تنام مع آخر، هاجمته بغتة صورة (سارة) وأحس – الآن – مدى أن تأكل ديدان الشك ذلك العقل الجبار لعباس العقاد، كان يعرف أنه لو فتح هذا الباب فإن كل مكونات الجحيم ستدخل منه. هل تستحق هي وقد جلست الآن ووضعت حقيبتها أمامه مباشرة وهي تقول: الجميل مكشر ليه؟ انت جيت من

زمان؟ وخزته الكلمة مثل دبوس لكنها سرعان ما قالت: كلمت واحدة صاحبتي دلوقت. فقال هو: آه.. سوف تطبق سارة على عنقي من جديد. قالت هي: صحيح ما لَك؟! في حاجة؟ تأملها الآن في هدوء، واكتشف في دهشة أنها تعلق فوق صدرها الصغير قلادة من الفضة على شكل قلب، فأخذ يتأملها في صمت، كانت القلادة مستكينة فوق صدرها مثل كلمة ليس لها معنى محدد، مجرد قلب صغير من الفضة الخالصة معلق في سلسلة لامعة: عجباك؟ بابا جبها لي امبارح بس. قال بسرعة دون تدبر: بابا برده؟ قالت في غضب: وبعدين بأه؟ تذكر وهو ينظر إلى صدرها الصغير الضامر كم كانت رائعة مثل طفلة، وهي مستاءة من صغر هذا الصدر، وهي تهمس له في ظلام الغرفة: لقد صدمني بائع الفساتين.. ابن الكلب.. حيث قال أن خراط البنات قد قام باللازم، فيما يتعلق بنصفي الأسفل، لكنه نسي أن يفعل ذلك بالنسبة لنصفي الأعلى.. كانت تضحك في غضب، وهو يقول لها: إنّه بائع ابن كلب فعلًا، رغب في أن يقول لها: إنّه – الآن – قد عثر على التشخيص الصحيح للحالة، هذه العلاقة التي تربطهما معًا مثل حبل أسيء ربطه، المشكلة أنها تضع هذه العلاقة بجيبها الداخلي، أما هو فإنه يعلق العلاقة فوق صدره، فوق القلب، فتظل كبندول ساعة ضخم تضرب فوق هذا القلب، طوال الوقت، طوال النهار، بينما هي

رابضة، مثلما قلت لك بجيبك الداخلي، تخرجينها فقط في الوقت المناسب.

كان هاني قد جاء مرة ثانية لتنظيف المنضدة؛ ليتصنت قليلًا، ويسألهما إن كانا بحاجة إلى مشروب آخر، فصمت هو لحظة، كانت قد خلعت القلادة بهدوء، ووضعتها في الحقيبة. قالت بعد أن انصرف هاني: أنت تنظر إلى الأمر بشكل مختلف.. أوفر.

وسكتت قليلًا ثم أردفت في هدوء: ليس ذنبي أنك سمكة تعيش خارج الماء. أيها الرجل العجوز. وخبطت الجملة الأخيرة فوق الطرابيزة مثل قطعة ملاط ضخمة قد سقطت من السقف فأحدثت دويًا هائلًا، فأحسّت هي على الفور بأن شيئًا ما لابدّ أن ينقطع. كانت الشمس قد بدأت تتسلل مثل لص من السلطان حسين، وتتمدد أمامهما على الطرابيزة في صمت، مثل قطة صفراء هزيلة، تنظر إليه في استرحام. والشارع ذاته قد بدأ يموج بالحركة، السيارات بدأت فرحها اليومي، وبدأ العاشقون الذين يحاولون سرقة أوقات جميلة من أماكن عملهم يقبلون على المكان، واكتظت قاعة الفندق فجأة بأناس مشوهين كأنهم أسرى حرب قادمون من أماكن مجهولة، وهو تأكد بأن (سارة) قد تم تخليقها من جديد، وأنها موجودة دائمًا، وقد لمح ذلك الشيء وهو ينقطع، ثم رآها وهي تخرج القلادة مرة أخرى من الحقيبة،

وتضعها في جيب قميصها الأبيض الشبيه بقمصان تلميذات المدارس، دقّقت في ساعتها فجأة، ونظرت في جدول صغير يشبه جدول الحصص تعلقه في رقبتها، وقامت فجأة من دون أن تمس مشروبها وقالت: سلام.

(4)

الزقازيق هل هي الزقزقة أم الزقوم؟ زقزقة العصافير أم الطعم المر لنبات جهنم؟ أم هي الزقاق الذي جمعه أزقة؟ زقاق نجيب محفوظ حيث حميدة. حميدة أم بثينة أم ثناء. أيًا كانت فهي تحضنه – تقريبًا –تلف ذراعها حول ظهره، وهما جالسان في المقعد الخلفي – للبيجو الأجرة – من موقف الإسماعيلية في الصباح الباكر. أحسّ بأصابعها اللدنة وهي تدغدغ أعلى كتفه من الخلف، في بطء ثم هستريا غريبة، حتّى أنّه اضطر أن يلمس بكفه ربلة ساقها اليسرى التي هي جواره، فضمت ساقيها بسرعة، وحبست كفه بينهما وابتسمت قائلة: حبستك يا جميل. مثلما كانت قد قالت له، صباح الخير يا جميل، حينما وجدها واقفة على بعد من الموقف: السائقون جميعهم يعرفونني.. أربع سنوات رايحة جاية أسبوعيًا. فقال لها: مفهوم. تلك الأربع

سنوات. لابد أنها كانت صغيرة وخام، عندما احتضنها بسنواته الأربعين ومفهومه المتخلف عن المسرح، وهي حرة – تقريبًا – في دخولها وخروجها من بيت الطالبات.

"أول مسرحية مثلت فيها كانت "الأميرة تنظر"لصلاح عبد الصبور. كنت أنا الأميرة بالطبع، وكان هو المخرج المحنك. من يومها وهو أبي.. أبي.. أبانا الذي في الأرض.. فليتقدس اسمك". غرق في الضحك، بينما هي مغتاظة، تقول له: بتتريق؟ طيب. أنت أيضًا أبي. كان هاني يقف منتظرًا أن تحدد نوع المشروب، الذي ستطلبه وهو يبتسم في بلاهة بينما هي تصر على أنها لن تشرب شيئًا. خليك في البيرة بتاعتك. برفق ربت بكفه – بعد أن تحررت من سجنها الدافئ – فوق خدها المحمر من الانفعال: إنت زعلتني؟! أنا آسف. وكان هاني قد انصرف، والمكان خال تمامًا فنزل بكفه من الخد إلى الأسفل، ـ مش قلت نبطل شغل الأوتوبيسات بأه. شغل الأوتوبيسات؟ فكر بأنها ما زالت صغيرة على شغل الأماكن الحميمة. (هكذا فكر هو.. لكنني أنا عبد الحميد الذي أكتب هذه القصة أجزم بأنها ليست صغيرة أبدًا على هذا الشغل. فقط هو غارق في رومانسية منقرضة). نفيشة، الواصفية، أبو صوير، المحسمة، القصاصين، التل الكبير، العباسة، مدن صغيرة ملقاة على جانبي ترعة

الاسماعيلية مثل جثث لحيوانات ميتة. هذه الأماكن التي شهدت هزيمة عرابي. هزيمة 67، ثم الهزيمة المرة من المدن الحرة المجاورة. ربما هزيمته هو شخصيًا. هل هو مهزوم حقًا؟! وهي ما زالت قابضة فوق كفه بساقيها. وسائق البيجو بدأ يسلط مرآته عليهما، والأشجار الكثيفة على جانبي الطريق تركض بسرعة جنونية إلى الخلف، والزقازيق تقترب، الموقف، سهم يشير إلى الجامعة ثم قالت له: نصف ساعة فقط، أسلم عليه وارجعلك.

جلس لمدة نصف ساعة فقط فوق مقعد رخامي في المزرعة المواجهة للمبنى، مسرح كبير وقديم يعاد تكوينه، حيث شاهد عددًا من النجارين أثناء خروجهم من الباب المواجه للمقعد الذي يجلس فوقه، ما هي العلاقة بين النجارين الخارجين يحملون مناشيرهم وأدواتهم وبين نسبية أينشتين؟ لماذا يتذكر تلك النظرية والعالم العجوز يحاول إدخالها في فم امرأة برجوازية مذهلة مثل بسوكتة؟ هل لأنه مكث طويلًا فوق المقعد؟ والجو قد انقلب بغتة وهبت تلك العاصفة، التي خلطت السماء بالأرض، حتى أنه قد شاهد الأرض وهي تتشقق، والسماء وهي تمطر أحلامًا صغيرة على شكل دجاجات تنط فوق حجره فور ملامستها الأرض، وحجره وقد تضخم ما بين ساقيه جدًا مثلما يحدث له أحيانًا، فتيقن بأن جسدين إنسانيين يتماسان في هذه اللحظة، وأن تداخلًا

بين أعضاء الذكورة وأعضاء الأنوثة يحدث لابد توًا، وربما بدأت حبات اللقاح للأشجار الكثيرة على الحدود تنهمر فوق المزرعة والمسرح، الذي قد صار له فيهما ثلاثة أرجل وقرنان، حينئذ وجد نفسه على باب المبنى المسقوف وبالغ القدم، والمكتظ بالظلمة، هل خاض الآن في الظلمة أم أنه غارق فيها منذ أن قالت: نهار جميل؟ إنه مولج فيها بالتأكيد منذ أن قالت له في (نفرتغاري): عيناك جميلتان هذا النهار. الظلمة هنا متجسدة وحية كأنها حيوان وحشي يملأ المكان، بعد هنيهة تعودت عيناه الرؤية، بدأت الكراسي المحطمة والممرات بينها تظهر وتبين، كان عليه أن يجدهما في هذه المتاهة، ثم بدأ يتخبط في حيوانات الظلام، الخفافيش التي تنط بغتة من أماكن قرب وجهه ثم يبتلعها المكان، كان لأجنحتها صفير مخيف، وبدأت العناكب الكبيرة جدًا رحلتها في مطاردته، والفئران الشديدة السواد كأنها قطط تقفز قرب قدميه في سرعة وتهرول في خوف، فكر أنه لو خلع نظارته فسوف يتمكن من الرؤية بشكل أفضل، فأمسكها بيده، وفجأة أحس ببؤرتين تظهران، تضيئان باستمرار الأماكن التي ينظر إليها، ولما اكتشف أن عينيه تحولتا إلى كشافات قوية؛ اندهش جدًا لكنه لم يخف فإنه قد شحذ جسده وخلاياه جيدًا، كان مستفزًا ومرهقًا وممتلئًا بالكهرباء، فأخذ بسرعة يمسح المكان بعينيه

المشعتين، فتتعرى الأشياء وتبين؛ إلى أن تمكن من رؤية مئات من أعقاب سجائر البلمونت مبعثرة، تكون خطًا طويلًا متعرجًا، فاتبعه، أخذ يهرول خلف البلمونت، وهو يتخبط في أطراف الكراسي الخشبية والديكورات المهشمة لمسرحيات قديمة وجماجم واسعة حدقاتها، وهي تحدّق فيه برعب، ثم بدأ في سماع الأصوات الخافتة والهامسة والزاعقة، هو يعرفها، هذه الأصوات، هي مألوفة، أجزاء من حوارات قديمة كان قد سمعها أو قرأها، وكأن المكان كان يختزن كل هذه الأصوات وفجأة دبت فيها الروح، كان ذلك يؤرقه قليلًا، لكنه استمر في البحث وهو يدهس أعقاب السجائر إلى أن وصل إلى نهايتها، وفوق خشبة المسرح وجده قائمًا، وكأنه منذ الأزل.. هذا السرير النحاسيّ، الذي يقف على أعمدة صفراء لامعة، محاطًا بناموسية من التيل الأبيض تشد قبضتها حول أعمدتها المشرعة في الظلمة، كائنًا ومتحفظًا ومجلوًا كأنه ينتظر ليلة عرس، بسرعة أخذ يتخبط في الأشياء والأصوات، إلى أن تمكن من لبس نظارته من جديد، وتمكن كذلك من الخروج بصعوبة تاركًا المسرح وراءه، فالمحطة وأشجار الطريق تركض بجنون في الاتجاه المعاكس، العباسة، التل الكبير، القصاصين، المحسمة، أبو صوير، الواصفية، نفيشة، ثم الإسماعيلية المستكينة، كأنها امرأة تتمطى بعد ليلة جنس مرهقة.

(5)

المبنى الصغير المسمى مستشفى مخبوء في مكان كئيب، وأنا أجوس راكضًا تقريبًا.

غابة الأشجار والنخيل ونبات الحلفا والغاب والدنيا تمطر بعنف، كأنّ الكائنات الحية كلّها تشهق معي، هكذا النفس يخرج من الفم بقوة، ويحدث صوتًا، مثل فحيح ثعبان ضخم بحجم الألم والبلل الذي يغمرني.

رأيتها – بثينة – وهي نائمة فوق سرير صدئ، من تلك الأسرة التي كنا نستخدمها في الجيش، سرير بالكاد يكفي عرضه لشخص ضيئل وطوله لشخص قصير، عيناها ذابلتان وغائمتان ووجهها قد صار بلون وجوه الموتى (عيناها الجميلتان والتي كتبت أن بهما حور ذات قصة) هي الآن وحيدة وخائفة، وعندما رأتني أخرجت يدها الشاحبة أيضًا من تحت بطانية صوف مهترئة وضغطت فوق كفي، أمسكت يدي بعنف كأنها غريق يمسك بآخر قشة تربطه بالعالم الحي وقالت في وهن: مش انت.. لازم تعرف.. مش انت.

كنت أعرف بالطبع، حيث أن كائناتي الحية الصغيرة لم تكن قد شقت بعد طريقها إلى دهاليزها الدفينة فقلت في همس: أنا

عارف. ثم جاءني صوتها الضعيف: مش عايز تعرف مين؟ ـ مش وقته.. المهم سلامتك الآن.

كانت الدنيا قد اسودت بشدة، والمطر يسح بغضب هائج، وأنا أشق طريقي بصعوبة وسط الأشجار الكثيفة، لابد أنني سوف أستمع الآن إلى آذان المغرب يصدح من الميكروفونات المحيطة بالغابة، وحاولت النظر إلى ساعتي المغبش زجاجها الآن بماء المطر وصوتها يرجوني ذات مرة: لا تطلبني ساعة المغرب. بابا بيكون موجودًا للإفطار.. إنه يصوم يوم الاثنين والخميس، كما تعرف. قبل المغرب بساعة أو بعده بساعة. أرجوك. بدأت الكلاب في الصياح فجأة، لكنها لم تكن تهاجمني، فقد كانت تعوي وهي تركض خارجة من بين الأشجار متجهة صوب المدينة، ودهشت لذلك، لأن الكلاب كانت تكرهني دائمًا وكنت أكرهها. لماذا لا تهاجمني؟! بينما رأيت الخفافيش كثيرة تنبثق بغتة من بين الأشجار، مختلفة الأحجام، فرادى وفي أسراب كأنها طائرات سوداء تحوم حول المكان. كان لابد أن أحدد موضعي الآن فأنا في بداية الغابة، تلك الأشجار الكثيفة التي تمت زراعتها منذ زمن بعيد، كان عليّ أن أخترق من المنتصف تقريبًا، في طريق سبق وأن مشينا به كثيرًا، ربما أجد تلك المستشفى أو الكهف الذي كان خندقًا كبيرًا للجنود أيام

الحرب فاستغله الدكتور فايز، وهو طبيب قد تم فصله من الخدمة لقيامه أكثر من مرة بعمليات لا يقرها القانون، وصنع له بابًا حديديًا سريًا ووضع به سريرًا صغيرًا لإجراء تلك العمليات. كانت الظلمة تشتد، وأضواء المدينة التي أنيرت دفعة واحدة قد بعدت الآن، فأحسست أني أنزلق عبر نفق أسود. و"بثينة" تقول لي: مش انت. فأقول لها: عارف، مش أنا، والحياة تفر بهدوء وآلية من جسدها، الذي كان دافئًا ومثيرًا وهي تقول لي: شِعر إيه وبتاع ايه. سيبك من الكلام الفارغ ده. أنا عايزة أبقى غنية. فاهم؟ لم أكن أفهم بالطبع وهي الموهوبة ومدحت – صديقي المثقف الدائخ – يقول لي بأن الموهبة الحقيقية تفرز الواقع وتنقيه وتركن الهامشي والاستهلاكي وترميهم في الزبالة. هل كانت موهوبة حقًا؟ أم كان مدحت مخطئا؟ لكنه هو الذي أسرع إلى شقتي وظل الجرس يرن كثيرًا حتى فتحت له الباب، وكان عرقانًا ومجهدًا وقرفانًا. وحين فتحت الباب قال لي بلهوجة: أسرع.. بثينة في الخندق.. حدث ما كنت تخشاه ولجأت إلى"فايز".. هي الخفافيش إذن.. كيف تمكنت من غزو هذا الجسد المستوي الجميل. كان علىَّ أن أسرع الآن. كنت قد تخلصت من كتلة الشجرات الكبيرة التي تحمي الغابة وتحرسها.. ووجدت الطريق. عثرت على المدق، الذي كنت أعرفه حيث

سينتهي في طرف الغابة الآخر، والفراغ والطريق المرصوف المؤدي إلى المدينة الحرة، وتلك الخرابة التي سوف ينتقل إليها السوق الجديد. حيث أعمدة الإضاءة المطفأة والخندق، الذي كان مدحت يسميه "مستشفي فايز للحالات الحرجة"، اشتد المطر وأحسست بأعضائي ترتجف، وكانت المياه تسقط من الأشجار فوق وجهي وجسدي، فأشعر أنني أعوم في ماء عكر، قلت فلأسرع الخُطى، وأخذت أركض فوق المدق، الذي لابد أن ينتهي في آخر الغابة حيث سأجد الخندق وبثينه"ممددة في هدوء، د فايز غارقًا في عرقه مرتبكًا، ومدحت يصرخ فيه بعنف: وديتنا في داهية. عيناها مفتوحتان لا ترمشان، لكنها عندما تراني تهتف في ضعف: مش أنت. فأقول لها: عارف. وتضايقني نباتات وأشواك المدق الصغيرة، تتفتت وتدخل بين الحذاء والجورب، وتلسع باطن قدمي فأقرر خلع الحذاء، وأخيرًا ألمح الضوء من بعيد جدًا، هو ليس ضوءًا كاملًا، مجرد شعاع خافت مرتعش، وأخمن الآن موقع المستشفى فأجري دون وعي وقد كفت الخفافيش عن مضايقتي، وقد تبلل قميصي بالكامل فأقرر خلعه أيضًا، وأرميه جانبًا وأحس بالبرودة الشديدة، تنتابني رجفة. لكن ها هو الأسفلت.... انتهى المدق وها هو الأسفلت. لابد أن هناك خطأ ما. فالسيارات تمرق من جانبي بسرعة رهيبة،

أضواءها تعمي عيني، ولكنني أجري فأدخل مكانًا غريبًا، مزدحمًا جدًا، ما كل هؤلاء الناس؟ كأن الأرض قد تقيأتهم فجأة، هل هذا؟ ـ ربما. لأن البضائع كانت مكدسة على الجانبين، ملابس من كل صنف وبألوان متعددة، أدوات كهربائية عديدة تلمع حوافها، حيث أن عرق السماء قد كف وصفا الجو، كان الرجال يضربونني بعنف وأنا أركض وسطهم، رجال غريبو الوجوه، أجسادهم عريضة وسوداء ويربطون رؤوسهم بعصابات من القماش اللامع، تزعق أصواتهم بعنف بأسماء بضاعتهم وأثمانها، كأنهم في مناقصة عامة، والنسوة عاريات – تقريبًا – يتجمعن حول عربة يد خشبية صغيرة، وهن يرقصن رقصة شبيهة بالرقصات الأفريقية المشهورة، والملابس تتناثر حولهن، قمصان النوم والملابس النسائية الزاهية الألوان، وأنا أبحث في وجوههن عن وجه بثينة حتى وجدتها. لكنها كانت ممدة فوق السرير الصدئ وهى تقول: شعر إيه يا عم.. فوق.. أنا عايزة أبقى.. فاهم؟

لكنّني لم أفهم، لابد أن هنالك خطأ.. لأن الخندق يقع خلف المدق مباشرة، فتوقفت قليلًا. وتريثت قليلًا. حتى أعيد النظر من جديد.

(6)

كان صمتًا، وقطرات مطر خفيفة تنقر الزجاج العريض كمناقير عصافير مذعورة، الزجاج "فاميه" بني غامق لنافذة كافيتريا (علي بابا) في قلب ميدان التحرير، وكان غضبًا. قالت: هذا هو جوي، بموت في البرد.. في الخارج الجو ملبد بالغيوم، وهي تلف نفسها بالبلوفر الصوف، بينما (الجيب) القصير يكشف عن فخذين طويلين محببين من آثار البرد.

نظر من النافذة المستطيلة، في حياد ظاهر، لم يكن ينظر إليها. لم يكن يرغب في النظر إليها، ولما تمكن – بصعوبة بالغة – من رؤية النصب في قلب الميدان هاجمته برعونة فكرتان محوريتان، هما الكعكة الحجرية والعضلة القابضة.

هناك فرق بالطبع بين "الكعكة الحجرية" و"العضلة القابضة" فالأولى هي قصيدة الشاعر أمل دنقل (الذي اغتيل بواسطة السرطان) والتي كتبها عقب الأحداث الطلابية عام 1972، هي ليست كعكة عرس أو عيد ميلاد، لكنها التفاف وتشابك وغازات مسيلة للدموع وضرب بالهراوات وتأوهات وأناشيد وأشعار مؤلفة بنت اللحظة وحناجر تزعق بالهتاف القديم الجديد.

كانت جالسة إلى جانبي مقرفصة، ظهرنا للمتحف المصري ووجهنا للنصب، كنت أريها القطع الذي حدث في بنطلوني الجينز الوحيد الذي أمتلكه، وهي تدلك الجرح بيدها البيضاء في حنو شفيف، كان جندي الأمن المركزي وفي لحظة غضب مفاجئة قد هوش ناحيتنا بكعب بندقيته وكنت قريبًا جدًا منه فاشتبكت قطعة حديدية منه ببطن ساقي وتركت أثرًا داميًا بطول الساق بعد أن تمزق البنطلون السميك، تكالب عليه الرفاق وأزاحوه بعيدًا، كانت (شاهنده السمري) هي الأقرب لي، قرفصت إلى جانبي وأخذت تجفف الدم بمنديل ورقي في يدها، ما زال الدم يتدفق، كان الجرح غائرًا جدًا وطويلًا ببطن ساقي فوقفت حائرة، الرفاق منشغلون كجنود في كتيبة مرتبكة، كادت معركتهم أن تنتهي دون نتيجة حاسمة، كانوا يلتفون حول الميدان في فوضى وعصبية دون أن يلتفتوا إلى جرحي النازف، فقط كانت شاهنده حائرة، تكتم الدم بيدها التي غرقت الآن بالدم من دون فائدة، ثم قامت فجأة وبهمة – كأنها اتخذت قرار حياتها – بفك أزرار بلوزتها العلوية وانتزعت "السوتيان"، كان أبيض وباهتًا ومبطنًا بطبقة طرية من القماش السميك، ولفته فوق ساقي بحذق ومهارة ممرضة محترفة، ونسيت أن تعيد الأزرار إلى وضعها فبان صدرها ولم تهتم، استكملت ربط الجرح؛ فتوقف سريان الدم، ثم أنها ظلت تطبطب فوق الجرح كأنه طفل ترغب في إنامته،

فيما رحت أنا أزر لها البلوزة المفتوحة، وأسوي لها شعرها الأسود الفاحم الذي يعوق رؤيتها، حتى أننا قد جلسنا فوق الرصيف، وسط ضجة الرفاق متلاصقين مهدودين في انتظار أن يعلن السادات الحرب أو يكتب أمل: أيها الواقفون على حافة المقصلة..

***

كان غضب في داخله، بعد أن قالت: "بموت في البرد"، كان الغضب يفور في داخله مثل ماء يغلي، وكان ينظر من النافذة العريضة فيرى الهيلتون، وجامعة الدول العربية، نفس المباني القديمة وقد فقدت روحها، ثمة شيء غامض قد هجم عليها وفرغها من مضمونها الأصلي وفكك من بنيتها الداخلية، على اليمين المتحف المصري وقد هده التعب والمطر الخفيف يتساقط في رتابة فوق بنائه الباهت، وفي المواجهة النصب، آه.. ذلك النصب مغروس في القلب مثل عرافة عجوز أفقدها التغير المباغت قدرتها على الرؤية، والتنبؤ، والناس، ناس القاهرة، يركضون تحت المطر مكللين بالعار، مهزومين يدفعهم بؤسهم اليومي المرير ناحية الشوارع الجانبية تجاه المبنى الأبيض للجامعة الأمريكية، حيث بدأت البنات الفاتنات – الآن – بسيقانهن الطويلة الفاتنة وشعورهن الملونة في المشي الحثيث نحو سياراتهن المركونة في مدخل شارعي القصر العيني وباب

اللوق، كان مطر خفيف، وكان غضب، الغضب يخصه هو وحده، كانت قد جاءت بعده بساعة كاملة وطلبت الليمون بدون سكر وأحضر له النادل زجاجتي البيرة مرة واحدة بناء على طلبه. قالت: هذا هو جوي وكانت تبتسم، كانت الكافيتريا خالية تقريبًا إلّا من حبيبين جالسين على جنب يتبادلان تلامس الأيدي وتحسس الأجساد، في مثل تلك الأوقات كانت تترك الكرسي المواجه له، وتجلس إلى جانبه، تلتصق به: "علشان نعرف نتكلم" وكان هو في فرح يمسك بكفها الصغير الوردي بين كفيه كعصفور يخاف عليه من الطيران المباغت، ويمسح فوق ساقيها الطويلتين الجميلتين في حنو كي يدفئهما من البرد لكنه كان غضبًا؛ غضبه الخاص، حتى أنها بعد أن أشعلت سيجارتها "الكنت" الثالثة قالت وهي تتصنع القلق: آه.. بالنسبة للمرة اللي فاتت. مقدرتش أفلت.. كان فيه ظرف صعب قوي.. هتسامحني.. مش كدة؟؟.. عندئذ بدأ غضبه الخاص في الظهور، وبدأت اللحظة التي حاول كثيرًا الهروب منها في التشبث. كان قد شرب زجاجتي بيرة أيضًا في المرة اللي فاتت، فى فندق "حور محب" بزينته الفرعونية الرائقة، وهي لم تأتِ، مرت الدقائق والساعات، ولم تأتِ، فاضطر إلى مغادرة الفندق في الخامسة، وهجم عليه شارع الهرم مثل كلب مسعور، في بهو

الفندق، ومنذ الثالثة كان الإخوة العرب يروحون ويجيئون في جلابيبهم البيضاء الملتصقة بأجسادهم، وهم يحملون هواتفهم المحمولة وكأنهم يديرون الكون، ونساؤنا المصريات في أعقابهم، وكأنهن مربوطات بحبال النفط وشهوة الاستهلاك المدمرة، يأتي الواحد منهم وسيارته مكدسة بالدولارات، فتنفتح الثقوب في شارع الهرم، وفي الحواري وفي قرى الدلتا، تنفتح ثقوب الأنثى كلها حتى الثقب الثامن المقدس، والذي على الأخ العربي أن يحدد – طبقًا لمزاجه الشخصي – إن كان من قبل أو من دبر، مثل كلب مسعور.

شارع الهرم، هاجمه أيضًا الصهد، الذي يطرده الشارع من جوفه، وكان الشعور بالمرارة لعدم مجيئها قد بدأ في الصعود، فجلس على أقرب مقعد حجري تحت مظلة الباص الذي سينقله إلى ميدان التحرير، كانت المحطة مكدسة بالخلق، ثم حدث الأمر، في لحظة خاطفة مباغتة غير إرادية، بدأت الرعشة من أسفل، من القدمين، ثم الساقين، رجفة غريبة كأنها آتية من خارج جسده، وضد قوانينه البيولوجية الخاصة. الساقان الآن يرتجفان فيضمهما، فلا يلاحظ أحد من الجالسين إلى جواره أو الواقفين أمامه أو خلفه شيئًا، فقط يضم ركبتيه وهما تتشنجان، ترتعشان وكأن الروح تخرج منهما توًا، يضمهما بقوة – الركبتين – وهو

يضح كفه بين ساقيه، ويشعر به، عضوه، غير منتصب، ساكنًا، هامدًا تمامًا، إلا أن السائل يصعد من ركبتيه، سائل صلب، كثيف، يصعد بهدوء متجهًا صوب كرتيه الصغيرتين المستكينتين تحت قبضة كفه، ثم عبر القضيب الساكن أيضًا في قذفة قوية، مثل البصقة، سميكة ووافرة ودافئة، فيغرق غياره الداخلي، وتظهر البقع الداكنة فوق البنطلون، ويغمره العرق؛ فيشعر بالانتعاش المفاجئ، والسكينة، كأنه قد سقط في بئر ماء بارد، وينسى تمامًا أنها لم تحضر، هو حر الآن وهي لا شئ، بنت وسخة دايرة على حل شعرها، ينسى حتى الإخوة العرب، وحور محب، وشارع الهرم، والثقوب الثمانية في جسد المرأة، فقط الآن هو حر ونشط وممتلئ بالثقة والانتعاش.

***

ها هو إذن يدخل عالم الكوابيس، بالرغم من كونه مدركًا تمامًا، أنه قد نزل من الميكروباص الآتي من الهرم، وعند نزوله تحت كوبري أكتوبر، كان الموقف الجديد غريبًا، الفندق الفخم الجديد الذي شيّد بعنف وقوة رأس المال قد طوح وبحركة واحدة بالكاتدرائية الجميلة، التي كانت تتوسط الميدان، خلف المتحف وبيت عمته ميمونة بأدواره الثلاث قد أزيل تمامًا، وكذلك بيت بلواكي والبيوت الصغيرة المقابلة حتى ورشة توستا وتوني، كان

يقف وهو صغير أمام المنزل ليرقب مذيعات التليفزيون، وهن عابرات متوجّهات إلى المبنى القريب، يرقبهن وهو القروي في انبهار بين صورهن الصغيرة في الأبيض والأسود، وأجسادهن الحية – الآن – وشعورهن المرتبة وملابسهن المثيرة، وهن يتبخترن أو يضممن البلاطي الصوف فوق أجسادهن الممشوقة الحلوة. ثم هدير المترو المفاجئ يوقظه وهو يفرمل عند نهاية الخط، والنيل شاخص تجاهه، لا يفهم شيئًا بالتأكيد، ولا يعلق على شيء، ها هي روحه العجوز تترنح وقد ساءها أن يحدث ما يحدث، وهو أيضًا كان مستاءً، فقرر أن يخترق ميدان عبد المنعم رياض متوجهًا إلى ميدان التحرير، أو يدخل شارع محمود بسيوني؛ ليستعيد رحلته القديمة منذ عشرين عامًا، هو وإبراهيم ابن عمته ميمونة تلميذ الإبراهيمية الثانوية، الذي كان مفتاحه لدخول القاهرة، يأخذه إبراهيم فور وصوله إلى شارع سليمان باشا ثم إلى وسط البلد، بنات مصر فرحات كاشفات عن أذرعهن وسيقانهن، بينما الرجال صارمو الوجوه يركضون في الشوارع دون سبب محدد، ثم هو وإبراهيم يأكلان الآيس كريم من جروبي سليمان باشا، الآيس كريم اللذيذ بالفستق في قراطيس من مادة طرية تذوب في الفم.

ها هو إذن ينتهي من شارع محمود بسيوني، ويفكر في المرور على الأتيليه أو حزب التجمع، لكنه يركض من دون النظر إلى مكتبة مدبولي، التي تقلصت الآن وبدأت تلملم أطرافها من الشارع إلى داخل المبنى، ثم يعطي ظهره للتمثال البعيد، الذي يقف بلا معنى ويتجه صوب شارع سليمان، وقد بدأ يشعر بالجوع.

[بعد أن شعرت بالجوع تذكرت التابعي الدمياطي، بالاتجاه يمينًا قبل سينما مترو مباشرة حتى ميدان عرابي، سأجد بالتأكيد عبد الفتاح الجمل يخطف ساعة من عمله بجريدة المساء المجاورة للتابعي، هو القصير بشعره الأكرت ونظراته القلقة المتوثبة، كما أنه صانع كوكبة من الكتاب، أو فلنقل أنه أعطى الفرصة لجيل كامل من كتاب الستينيات للبزوغ والتحقق، سأترك كل ذلك ورائي، لقد انتهى كل شئ الآن وبدأ الحلم في التحول إلى كابوس مقرف، كل شئ، كنت أسير في اتجاه ميدان عرابي، غائبًا تقريبًا عن الوعي، والبقع التي فوق البنطلون بدأت تظهرها الشمس، لم تجف بعد، دمها المراق فوق رجلي لم يجف بعد، كأنني دودة، كأنني إحدى شخصيات "كافكا" فكرت كثيرًا من قبل، كيف استطاعت هذه البنت الصغيرة أن تتمكن مني إلى هذا الحد، هي الآن لم تعد بنتًا ولم تعد صغيرة، هي التي كتبت عنها

في قصصي السابقة، عن البنت الجميلة، كانت في الرابعة والعشرين، تمامًا، قالت لي ذات مرة: اسمع.. أمامي الآن خمس سنوات فقط ثم يبدأ الكبر يركبني، ففهمت أنها تفكر بلغة السوق، أدركت أن سنوات الانفتاح الاقتصادي قد رسخت قوانين السوق، كل واحد يدخل ومعه رأسماله، الإعلانات المستمرة كذلك في الراديو والتليفزيون، قد تمكنت من خلق إنسان جديد، قالت: لا أملك سوى جسدي.. أنا الآن صغيرة وجميلة وأمامي خمس سنوات فقط.. وكأني تاجر ناجح لابد أن أستثمر رأسمالي الخاص، ملكيتي الخاصة، كانت قد نامت مع أربع رجال كبار حتى الآن، أربع محطات للوصول، الوصول إلى ماذا؟! كانت تتعامل مع جسدها مثلما يتعامل التاجر مع دكانه، بضاعته. عندما ألمسها في موضع ما من جسدها تصرخ على الفور: حاسب على البضاعة. كان جسدها بضاعة بالفعل، كان ذلك منذ أربع سنوات مرت، هي الآن ليست بنتًا وليست جميلة، الآن قد انتهيت من ميدان عرابي متوجهًا ناحية التابعي الدمياطي، أراها على حقيقتها، عيناها التي كتبت عنها زمان. هما عينان آسيويتان مسحوبتان بغير نظام، وجهها منفر وفمها كبير وغير متناسب مع حجم الوجه الطويل الرفيع وكأنك تنظر إليه من زاوية منحرفة دائمًا، هي الآن تكاد تكون دميمة، بل هي دميمة

بالفعل وتيقنت بأن الكاتب يصنع دائمًا من المرأة التي يحبها أسطورة، من دون مسوّغ معقول، هل نكتب دائمًا عن المرأة التي من خيالنا، ولا نرى المرأة الواقع دائمًا، ولكن ما هو الواقع بالضبط؟! كان عبد الفتاح الجمل يصرخ في وجهي دائمًا بأن أكتب عن الواقع، هل هناك واقع فعلًا؟! هذه السيولة المتدفقة عبر الزمن مثل تيار ماء يجرف كل شئ في طريقه، ميدان التحرير، الكعكة الحجرية، الكاتدرائية، بيت عمتي ميمونة، المتحف المصري، بيت بلواكي، النيل، وشاهنده السمري وكل هؤلاء البشر من حولي، ميدان عرابي لم يعد هو ميدان عرابي، معرض الهيئة العامة للكتاب فأنحرف يمينًا، شبه راكض، وطرف عيني فوق البقع التي تلوث سروالي، الأكشاك الكثيرة التي تكدست في شارع عرابي مثل بقع سرطانية. ثم التابعي الدمياطي، وأدخل، لم يكن عبد الفتاح موجودًا، وكانت هناك رائحة نتنة تملأ المكان، ثم أتذكر أنه قد مات منذ زمن بعيد وأن أهم كتاب مصر، الذين فتح هو لهم الباب، قد زحفوا من القاهرة، ومن قرى مصر البعيدة إلى دمياط لكي يواروه الثرى، أخذ معه واقعه ومات، الواقع مرة أخرى، هذه الذرات والأيونات التي تركض نحو الهيولي، الأجساد العطشى للتحقق والأرواح المقتولة في البراري من دون جدوى، والحيرة؛ حيرتي أنا شخصيًا،

و"فرويد" يؤكد بأن الفن هو تصعيد للغريزة، فأبتعد عن جسدي قليلًا كي أتمكن من الكتابة وبين "داريل" كاهن الإسكندرية العجوز وهو يؤكد على لسان بورسوادن: مارس.. مارس الجنس كثيرًا كي تكتب كتابة جيدة. وحيرتي أمامها في قصر ثقافة الإسماعيلية الفخم مثل أوبرا، كنت أراها للمرة الأولى، قالت لي أن مجموعتك القصصية الجديدة مجموعة جريئة ورائعة فقلت لها: جيد جدًا فلنجلس ونتفاهم. عندها فاجأتني: أنا أحب الأماكن المغلقة. وفي اليوم التالي كانت في شقتي.]

فلنؤجل الآن ما حدث في اليوم التالي لرؤيته الأولى لها، وكذلك عندما ذهبت إلى شقته، فهو قد قرر عدم الأكل عندما هاجمته – من المقطم المفضل لديه أو الذي كان مفضلًا – تلك الرائحة النتنة. ومن حسن حظه أن المطعم الذي هبت منه تلك الرائحة النتنة كان قريبًا من موقف"القللي"حيث الأوتوبيس المكيف الذي كان يفضل أيضاً ركوبه عن سيارات"البيجو"والذي سوف ينطلق بعد ربع ساعة إلى الإسماعيلية. من حسن حظه أن الجو كان حارًا جدًا، كانت الشمس تصب جام غضبها – مثلما يكتب الأقدمون – فوق البشر، هذه الحرارة وذاك العرق على الرغم من القرف، الذي كان يشعر به كانت لهما ميزة كبرى، ربما لم ينتبه إليها، هذه الميزة هي أن الشمس قد تمكنت

أخيرًا من امتصاص البقع التي كانت تلوث سرواله الداخلي "الكلوت" وسرواله الخارجي "البنطلون"، الآن قد جف دمها تمامًا وكأنه وبمساعدة قوى الطبيعة قد تمكن من التخلص منها، تمامًا، انتزعها من داخله ببصقة واحدة، كانت تلك البصقة لها فعل السحر، كانت أقوى من كل تلك الحيل التقليدية الفاشلة والتي دأب منذ ثلاث سنوات على اتخاذها كي ينساها. هو الآن سوف يركب أوتوبيس الإسماعيلية المكيف وهو خال منها تمامًا، خال منها وممتلئ بذاته. سوف يركب الأوتوبيس، ولم يركبها هي مرة أخرى، عندما كانا يسيران في شارع سليمان ذات محاولة فاشلة في نسيانها، ثنت ذراعها في نصف دائرة، وأمسكت بذراعه وقالت: اركب.. وبالرغم من معرفته بأنها تجيد تلك الإشارات الجنسية المبتذلة، إلا أنها كانت تهمس بـ (اركب) هذه المرة ليست كإشارة، كان وجهها الدميم ملتصق بوجهه، أنفاسها وعرقها وجسدها الطويل الممشوق، الطويل البارد، الطويل مثل نخلة ذكر لا تثمر، كان هذا الجسد، يا للغرابة يدعوه للركوب، وهي تقول: اركب.. وسط زحام سليمان باشا ساعة القيلولة، ساعة حارة مثل هذه تمامًا، لكنه سيركب الأوتوبيس المكيف هذه المرة، وهو مطمئن، لم يعد يشعر بالظلمة، ولا بأنه إحدى شخصيات "كافكا" وقد تمكن من الخروج من كابوسه ومنها، في نفس لحظة خروج

القذفة منه، هناك فوق محطة الباص أول شارع الهرم، في فعل ورد فعل، هو الآن سوف يذهب إلى الإسماعيلية، إلى بيته، وهو متأكد تمامًا أن هذه المرة هي المرة الأخيرة، لن يراها أو يحدثها مرة أخرى، فهي لم توجد أصلًا ولن توجد.

****

وهكذا.. لم نتمكن من كتابة شيء عن العضلة القابضة، أخذنا الحديث عن شاهنده السمري وعن شارع الهرم، وكذلك الحديث عن الثقوب الثمانية في جسد الأنثى، كنت أعتقد أني أول من تنبه إلى هذه الثقوب، لكنني قرأت أخيراً رواية للروائي التشيكي "ميلان كونديرا" ذكر فيها هذه الثقوب، ثم عرفت فيما بعد بأن الكاتب الفرنسي الكبير "فرانسوا رابليه" هو أول من لفت الأنظار إليها منذ زمن قديم.

ولكن هل هناك علاقة بين كل ذلك وبين العضلة القابضة؟

ربما.. أقصد ربما نعم وربما لا.

(7)

قالت له في التليفون: ميعملش كده غير واحد وضيع. لحظة صمت قصيرة، لا يرد، ثم: اعتبر العلاقة منتهية.. انا باندم على كل يوم عرفتك فيه.

جيش النمل يزحف وئيدًا من أسفل إلى أعلى، قاصدا الدماغ، ويحس بأنه خارج المشهد، هذا الصوت هو صوت ممثلة معروفة يصله عبر الشارع من مذياع بعيد، فكر: وفاء لا تقول ذلك. وهو يعرفها، هل يعرفها؟

سمعت ولا تحب أسمعك تاني؟ أرجوك لا تتصل بي أبدًا.

كل ما استطاع تذكره، بعد التهاب دماغه إثر تمكن جيش النمل منها هو بعض المشاهد القليلة:

1- مساءً في"قصر الثقافة"بعد انتهائه من محاضرة عن تطور القص الحديث، اقتربت منه وقالت: وفاء هاشم، شاعرة وقاصة، ليسانس أداب عربي ومعجبة بكتابتك، هل يمكن أن نصير أصدقاء.

2- بعد أيام قليلة، صباحا في شقته، كانت ترغب في تدشين صداقتها، كانت مستعدة لذلك حتى آخر قطعة، لكنه خشى من أن تكون بنتا وأن ذلك ربما يكون فخا.

3- بمدينة الزقازيق، ظهرًا، بشقتها المؤجرة بحى شعبي بعيد، ظلا يتجولان بالمدينة نهارًا كاملًا بعد مرورها على كلية الآداب، حيث تجهز دبلومتها في الإعلام، جلسا في كافيتيريا على النهر، وقرأ لها قصة جديدة وشربا شايًا، وأكلا سندوتشات كفتة بوسط البلد، حكت له عن صديقة لها تقيم مع طبيب منذ سنة بدون زواج ورفضها الإقامة معها على الرغم من كونها صديقة قديمة لها، وتسكن في أكثر أحياء المدينة رقيًا، يذكر أنهما وهما ذاهبان إلى شقتها البعيدة، كان هناك مزلقان سكة حديد، وشارع طويل جدًا وضيق مكدس بالبشر، ثم شوارع فرعية ضيقة تؤدي إلى منطقة ريفية، كانت تتقدمه بخطوات، وهما في الطريق اشترت نسكافيه، ومرآة مستطيلة وسكر، وأمام البيت وسط الحقول كانت امرأة عجوز تفترش الأرض مصبوغة الشعر بالحناء، جالسة مثل جذع شجرة عجوز، تبيع شيئا ما لأطفال صغار، وعندما ولجت وفاء من باب البيت، وهو وراءها بخطوات، حدقت به المرأة قليلًا.. ربما قد فهمت.

4- عصر القاهرة، فشلها في المرة الأولى في دخول معهد السينما، ظهرهما لشارع الهرم الذي بدا بطوله وصخبه كأنه قرافة، مجموعة العمائر على امتداد الشارع هى شواهد لمقابر فخمة مكدسة بالموتى، يذكر.. في التاكسي انفصلت عنه تمامًا،

هى غائبة في دموعها وجسدها الدافئ الوفير الملتصق به، كانت تهمس باستمرار: مش معقول.

دا وعدني دا وعدني. ابن الكلب، أنا انتهيت، ثم لسائق التاكسي: على القللي يا أسطى، في المرة الثانية كانت قد شحذت السلاح تمامًا واختارت الرجل المناسب، كان سلاحها جاهزًا – وهى ابنة مخلصة لمدينتها "الإسماعيلية"– ولزمنها (الانفتاح) سلاحها البتار – الجسد، وعندما تم قبولها جلسا في "على بابا" وشربا بيرة، ودخنا، كانت مشتعلة بالفرح والرغبة في الدخول إلى عالم السينما، وهي تحمل معها ثمن التذكرة: ما أخذته من أمها ذات الجذور اليونانية، من طول فارع وبياض ساطع، وما أخذته من أبيها الصعيدي من جرأة واقتحام.

5– هو لا يتذكر بالضبط، الصور تطفو إلى وعيه في منطقة بين اليقظة والحلم، وهي تغوص في بركة استخدامها لسلاحها في نسج شبكة علاقات مع أساتذة في المعهد وخارجه، تغوص وتغوص حتى أنها ذات مساء – في علي بابا – التصقت به، كانت مجهدة ومبذولة، وقالت: تعرف.. أنا السنتين اللى قعدتهم في مصر، في المعهد، حاسة دايما إن جسمي وسخ، دايما، رغم إني بستحمى كتير خالص، كل يوم، وبتليف والله حتى في عز البرد، المرات الوحيدة اللى بشوفك فيها، لما

بتيجي يعني، هى اللى بحس فيها إن جسمي نضيف، اقتربت أكثر ونظرت إليه بعينين رائعتين مبللتين بالدموع.

قربك مني بيحميني، بيطهر جسمي. يتذكر جيدا أنه قال لها: يمكن بيطهر روحك، ويتذكر كذلك بأنها كانت شاحبة، وكانت الأضواء في على بابا شاحبة أيضًا، وميدان التحرير – تحتهما – يدب بالوحوش. إذن فلنتركه بعد أن أغلقت سماعة الهاتف في وجهه بعنف، يسير في شارع السلطان حسين بالأفرنجي في وسط المدينة، بعد أن خرج من بيته وهو يستمرئ التداعي، وتراكم الصور، ولأنه ليس "كمال عبد الجواد" ولا هو من الذين يبكون على الأطلال، أخذت خطواته تنتظم، وأخذ يتأمل الأشجار المزروعة في منتصف الشارع بانبهار كأنه يراها للمرة الأولى، حتى أنه عندما مر على بيت جدتها اليونانية.. وفندق "نفرتاري" الذي قضيا به أمسيات عديدة، أخذ يدندن بأغنية قديمة، علا صوته مما لفت أنظار المارة القليلين في الشارع إليه. ولنتركه يدندن كيفما شاء، ويمتص صدمة إنهاء العلاقة بالطريقة التى يراها، فهو المثقف العجوز لديه القدرة على فعل ذلك. المشكلة الحقيقية هى أنه قد يكون من غير الملائم ترك هموم الوطن في هذا الوقت، الذي يتفتت فيه، والكتابة عن هذين الفأرين وعلاقتهما التي انتهت نهاية لا نستطيع القول بأنها مأساوية بقدر

ما هي نهاية سيئة. ولكن ذلك قد يكون مبررا لسببين أولهما أن هذه الفأرة والتي أسميناها "وفاء هاشم" هي نتيجة طبيعية لهذا التفتت، فتحقيق الأهداف عبر بوابة الجسد يؤدي بالحتم إلى تشيؤ الجسم وتشوه الروح، وثانيهما هو لجوء – الفأر العجوز – ولنفس الأسباب إلى محاولة نسيان هذا التفتت في علاقات مشوهة مع فتيات صغيرات شبه داعرات

الجزء الثاني

ما لم تقله الحقوقية

(1)

تقبلين من ناحية البحر في هرولتك الجميلة، مثل لص مشاعر محترف تدخلين فيّ، وأنا مرتقب في ذلك المقهى الصغير المطل على الكورنيش: ما أبدع أن أخلع حجبي في وجه العالم.. كنت قد حكيتِ لي عن القطة التي تحولت إلى امرأة جميلة، وعن الرجل المرسوم فوق جسده طائر الليل المرح وعن استماتتك في الدفاع عن قضيته؛ حينما أخذك إلى فراشه، وخلع كامل ملابسه، لكي يريك الطيور التي رسموها فوق جسده، وحينما حدثتك في التلفون، كنت قد قلت لكِ أنني سأكتب عما لم تقله الحقوقية. كنت في الواقع أكذب عليكِ. هل كنت قد أحببتك وقتها. كتبت بأن عينيك السوداوين هما البابان الوحيدان المفتوحان لي للدخول إلى جهنم. وأن عليّ أن أبادر في الدخول لو رغبت في صنع الرواية التي حدثتك عنها. من أقفل كل الأبواب فجأة. أهو البحر؟ أم جسدك الذي يشبه سلحفاة تتصخر غورًا حين ملامستها الآخر؟ دائما ما اقتحمني إحساس بأنك وريثة أصيلة لمدينتك الهيلينية الفظيعة. لماذا أنت ضد التورط دائما؟ هل قلت بأن الرب كان سكندريا بالتأكيد لأنه اختصك بتلك الموهبة؟ ولماذا أخذت نشوى تحكي لي مأساتها فجأة ونحن

جالسون في"الكريستال"؟ كنت أنتِ لا تصغين بالتأكيد وهى تثرثر عن الحجاب وعن الكبت الجنسي والفقر والمستنقع، الذي وجدت نفسها فيه، كنت أنصت إليها لكنني أتأملك.. امرأة سكندرية الوهج تتأهب للإنطلاق ناحية البحر.. سؤال شخصيّ معلّق في أفقي لا أرده. سؤال أم إجابة، وكنت أتمكن من مدّ يدي عبر منضدة الرخام الصغيرة، وأمسك بها جسدك، أفركه بين راحتي؛ حتى يصير ناعمًا مثل بودرة، وأضعه في كوب الماء الفارغ أمامي، وأشربه ثم أدخن البلمونت.. لماذا حكيتِ لي في تلك اللحظة عن "مارك"؟ هل هو التميمة التي منعتك من الولوج؟ أم هو المحارة التي سوف تدخلين فيها أيتها السلحفاة؟ هل أحببتك أصلا؟ لماذا كان البحر مفاجأة؟ وظهور "ميليسا" المباغت من ناحية شارع طيبة. تأتي في هرولة شبيهة بهرولتك. هاربة من مستر "داريل" ومن اليهودي العجوز.

تأتي وتخلع فراءها، الذي تلبسه فوق اللحم، وتجلس عارية مثلما ولدتها أمها فوق رجلي. ثم تبدأ في الغناء. وأنتِ تنظرين إليّ في صمت مؤقت، لماذا تشبهين "ميليسا" إلى هذا الحد؟ هل كل نساء الإسكندرية لهن هذا الوجع القاسي؟ هذا الحضور المرهق لروحي، حين يهرولن قادمات من المتوسط؟

أنتِ ساكنة ما زلتِ، ونشوى ما زالت تثرثر عن الحرس الجامعيّ، وعن ذلك الشرطيّ الذي يضطهدها لأنها منعته بقسوة من مغازلة إحدى زميلاتها. تمدّ ذراعها القصيرة داخل علبة البلمونت الفاغرة فاها مثل حيوان مفترس أشعلها لها. ثم يستقر كفها الأسمر الضئيل: الشرموط كان يضع يده فوق مؤخرة زميلتي، كأنه في غرفة نوم. فقالت له أبعد يدك لو سمحت. أرجوك. كانت مؤدبة، لكنني صرخت به: احترم نفسك يا ابن الوسخة، ـ هات الكرنيه، في داهية كل شئ. انتبهت أنت فجأة وسحبت كفها من كفي، فابتسمت تلك الشيطانة الصغيرة، وقالت لك: مش واخدة بالي. بعدها ونحن سائران في "صفية زغلول" متوجهان إلى "الإليت" تمكنت من القبض على كفك، كنت في الحقيقة أقبض على عالمك الدسم. حيث تركض قصائد النثر قاصدة الطلوع، وعندما أمسكت كفك في عنف وقبضت عليه فجأة كنت أقبض بالضبط على موهبتك المشرقة. هذا الشيء الذي وضعه الله فيك مثل إسطوانة من الذهب. هل لذلك علاقة بالسواد الذائب في عينيك، مثل جدل لا ينتهي بين فصائل الظلمة؟ لماذا تكون القصيدة تتمة لجسدك المهرول؟ مثل ذراع زائدة أو نهد يقفز تحت قميصك الجينز الكاكي، الذي رأيتك تلبسينه في المرة الأولى. أعرف أن سماء الإسكندرية زرقاء فعلًا.

ولا تحتاج لأن تدهنيها بالأزرق. المتوسط الذي يحتاج إلى عنايتك مثلما أحتاج أنا إلى لحمك لكي أصنع روايتي التي حدثتك عنها. مهلًا أيتها السلحفاة: لماذا يفضل"مارك"السير في شارع الفراعنة؟

كنت قد لاحظت بالطبع أنك قد انتزعت الإيشارب وبان شعرك الأسود منطلقًا فرحًا بحريته، ولاحظتِ أنتِ أنني أنظر إليه: حاربت من أجل ذلك. تصور. أمي – التي تمنيت ذات قصيدة أن يمسخها الله ساعة حائط – صرخت فيّ وأنا نازلة، وصرخت جدتي وجدة جدتي: لماذا تفردين شعرك يا قليلة الحياء؟ عوضي على الله. وكنت أنا كففت عن محاولة لمّه في قبضتي من الخلف، عندما بدأت أنت في حكاية الرجل الذي جاءك إلى المكتب وهو يكاد يبكي: في عرضك يا أستاذ... لقد سلبوني أعز ما أملك.. عصارة ظهري.. كنا قد اتفقنا أنا وأنت على أن نسميه "طائر الليل المرح"ثم قمت أنت بتقليده: كنا في الصباح.. في وضح النهار.. والجو نار بالمدينة، وكانت المرأة مغطاة بالسواد الكامل تحمل طفلًا وأغراضًا اشترتها من السوق. شاورت لي، وكنت غائصًا في الكرسي الملتهب للتاكسي، اندهشت في البداية ثم توقفت. نزلت وفتحت الباب الخلفي فركبت. كنت قد قضيت شهرًا كاملًا، وبالكاد أعرف شوارع

المدينة، وحينما وصلت إلى البيت أوهمتني أنها لا تستطيع التصرف. أنا أخاف نساء هذه المملكة، مما سمعته من رفاقي المصريين. السائقون البنجال والهنود حكوا لي حكايات يشيب لها شعر الرأس، لكنني قلت: أنا متدين فلأساعد المرأة، حملت الأغراض وهي حملت الولد، وعلى الباب هممت بالرجوع لكنها استوقفتني. رجتني أن أحمل لها الأغراض إلى الداخل فتوكلت على الله. عندما سمعت الباب يغلق، اختفى الطفل فجأة ووجدتها أمامي عارية تماماً وهي تأمرني أن أخلع: اخلع وإلا.. كنت مرعوبًا فقلت لها: لا أستطيع أن أفعل ذلك، وأنا خائف، فصرخت في: إيش بيك يا رجال.. ما تخلع. فخلعت. رشت فوق ذكري إسبراي غريب فوجدته فجأة قد اشتد، والله يا أستاذة، في لحظة واحدة صار وتدًا. ولم تكتف بنت القحبة بنفسها، عزمت جاراتها عليّ، الغرفة امتلأت بهن يا أستاذة حتى أنني ظللت أعمل ثلاث ساعات متواصلة. والله يا أستاذة كن يسحبن من ظهري ماء الحياة ويرسمن على ظهري هذه الطيور، بعدها ظللت شهرًا بالمستشفى ثم رجعت فورًا.

أنا عايز حقي يا أستاذة. هل ستساعدينني؟

هل قمت بمساعدته أيتها السلحفاة؟ عندما أخذك إلى فراشه، لكي يريك كيف قامت نسوة المملكة بالرسم على جسده بالحناء.

ولماذ قامت نشوى بهذا الانتحار الدعائي، شاربة سم الفأر في الكريستال في نفس اللحظة، التي هجم فيها طائر "الليل الحزين"على ذلك الصيدلي في شارع النبي دانيال طالبًا منه أن يعطيه ذلك الإسبراي، الذي يجهل حتى اسمه صارخًا فيه: أنا أريده وتدًا، وكاد يقتله عندما أخذوه إلى قسم الشرطة، وأنا أراكِ وأنت تحاولين دون فائدة أن تشرحي للضابط – إياه – معنى ذلك.

أسمعك بالكاد وأنت تطلبين منه في ثورة أن يعري جسده حتى يشاهد الجميع – أولاد الكلب – تلك الطيور. ثم وأنت تنزعين قميصه في غل كأن الإسكندرية كلها تدفعك. كأن ذلك الغشاء المطاطي والذي أسميته بالتامور له علاقة بالأمر. ها هي كتلة شعرك الأسود التي لم تعتد حريتها بعد تقف بيني وبين البحر، بيني وبين مارك. ها هي عيناك النفاذتان تتفتحان لي وتقولان في هدوء: أدخل إلى جهنم.. لماذا لك تلك العيون الجميلة أيتها السلحفاة؟ هاتان المنارتان تضيئان ظلمتي. تدغدغان جسدي ونحن في "الإيليت" حيث دنت الساعة. وحيث ذلك القفص الزجاجي – في صفية زغلول – يحدق بي المارة السائرون في الشارع يبصون كأننا في حديقة الحيوان. أنا وأنتِ كائنات بحرية والبيرة قد حفرت في جسدي سريرا يحتويك.

وغشاءك المطاطي غير قادر للصمود أمام حرارة الوتد. وتهمسين أنت في لغة سكندرية خالصة أه.. أه.. فأحترق – وأنا المحصّن ضد النار – ضد الورود، لماذا أهديتني تلك الوردة الجميلة في الكريستال؟ لماذا انتزعت هذا القلب الصغير المعلق فوقها، وأنت تخبريني بأن البائع الشرير، هو الذي وضعه، فأخبرك بأن تتريثي قليلًا فيما يتعلق "بمارك"، هل كنت أخدعك حين أخبرتك في محاضرة طويلة ومملة عن دور الاستشراق في الثقافة العربية الإسلامية؟ وعلى ضرورة ألا تجعلي افتتانك بالحرية الشخصية وتدمير التراث يدفعانك إلى أول متشرد آري يحوم حولك، على الرغم من كل ذلك أخذت تحكين لي كيف حملتم "نشوى"من المقهى بعد تناولها للسم، كيف أخذت تضربينها بعنف في سيارة الإسعاف كي تفرغ ما في جوفها، ثم تصمتين فجأة: لماذا حاولت هذه الزهرة الجميلة أن تموت؟ ولا أرد، يطبق البحر فوق جسدي حين تندفعين فجأة في إلقاء نكاتك الفاجرة. من أين حصلت على تلك الجرأة وعلى ذلك النزق؟ حتى عندما بدأوا في الحضور والالتفاف حولنا في "الإيليت"، في البداية جاء مستر "داريل"وهو يسحب "ميليسا"الرقيقة وكأنه يسحب فراشة فقلت لك: انظري.. إنها تشبهك تمامًا.

ثم جاءت نشوى وهى تحمل "طائر الليل المرح"فوق كفها، كانت مجهدة وصفراء مثل علامة استفهام، جلست إلى جانبي، فقط عندما حل "مارك"توقفت عن إلقاء نكاتك، جاء بشعره الذهبي وقامته الفارعة. هل شربنا كثيرًا؟ هل شربنا كثيرًا أيتها السلحفاة؟

بالمناسبة لقد تمكنت من الحصول على اسم الاسبراي الذي يخص طائر الليل المرح – إن كنت – أيتها السلحفاة في حاجة إليه.

(2)

هل ما زلت في الإسكندرية؟ لابد، فهذه رائحة اليود والأمونيا تهاجمني، إنني أتذكر: كنت في البهو الجميل – بالفيلا المتواضعة باستانلي – كنا وحدنا. هل كنت أنت أيتها الحقوقية أم كانت أميمة. لابد أنها كانت أميمة لأني لم أكن قد عرفتك بعد.

كنا وحدنا.. الصالة طويلة عالية السقف ومهيبة، وتلك الكنبة الأنيقة أمام التليفزيون، تترك يدي تتحرك بحرية، أذكر: أدلك سلسلة ظهرها في ألم وهى ساكنة: لست قادرة على الاستمرار.. لست قادرة.. ثم تنخرط في البكاء: أرجوك لا تفهمني خطأ.

أتسلل بعد الواحدة والنصف صباحًا، أذكر أنني عندما وصلت إلى "المنتزة" نظر إليّ زميل الغرفة مذهولا: كأنك ميت.. كأنك ميت، كنت أصرخ فيه: ماذا فعلت لهذه المدينة؟.. طعنتان في القلب. لا أدري لماذا قلت له هذا أيتها السلحفاة، لأنها كانت طعنة واحدة لكنني قلت""طعنتان". هل كانت الإسكندرية تفتح لي قلبها النيئ لتخبرني؟ أذكر جهاز التسجيل الأسود الفخم يزعق بهمجية: "الفراولة بتاع الفراولة... بتاع الفراولة... بتاع الفراولة.. "والولد المتخلف عار إلا من مايوه أزرق يرقص في الغرفة كأنه

مصاب بلوثة وهو يقول: كأنك ميت.. كأنك ميت.. ويستمر في الرقص. هناك، كان ميدان، وكشك سجائر قريب من البحر. أترنح لحظة ثم أكاد أسقط، يسرع إليّ رجل ويسندني، كذلك يسرع بائع الكشك ويفتح زجاجة كوكا كولا، أشرب فأتماسك قليلا، ثم يوقف لي سيارة تاكسي وأهمس للسائق: المندرة.. ثم "الفراولة بتاع الفراولة... بتاع الفراولة.. بتاع الفراولة".

أين كنت في هذه اللحظة أيتها السلحفاة؟ هل كنت في بطن أمك تحاولين الخروج مثل قصيدة؟ أم كنت تمسحين شوارع "باكوس" بعينيك السوداوين باحثة عن الكلمات، التي سوف تطلقينها، فيما بعد مثل سهام مسمومة؟ أعرف. كنت تتعطرين مثل وردة للدخول في إحدى قصائد "كفافيس" أو تتهيئين كونك "مليسا" التي سوف يعشقها داريل، وأنت تشرحين لي كيف أصل إلى مكتبك.. بعد الكوبري مباشرة تنزل.. أول شارع على اليمين.. ثاني دور. سأجدك جالسة مثل راهبة. المكتب غرفة صغيرة وجميلة والحمام في المواجهة. أغلق الباب، فتهمسين لي بأنك – نظرا للواقع الموضوعي – تتركين الباب مفتوحا، فأفتحه. وتجلسين خلف المكتب راغبًا في الجلوس إلى جانبك. هل كنت ترغبين حقًا أيتها السلحفاة؟ مثانتي ممتلئة والحمام مغر. كنت تضحكين، وأنت تقولين شيئًا عن بيت الراحة. لماذا أحببت

مكتبك إلى هذا الحد؟ وأنا مستلق على الفوتيه الأزرق الباهت قبالتك، وصوت فيروز يشحن المكان ببطء.. والإضاءة خافتة. وأنا أفكر لماذا كان لجسدك الضئيل كل هذا الحضور، وأنت تتحركين بتؤدة تعدين لي كوب "النسكافيه"والسخان الصغير يضيء وعيناك تضيئان، هل قرأت لك ساعتها جزءًا من الحقوقية؟ أذكر التاكسي – الذي أوقفه لي رجل الكشك – يخترق الكورنيش والبحر غاضب من شيء ما. هل كنت ميتًا إلى هذا الحد؟ لأن سائق التاكسي كان ينظر إليّ مثلما تنظرين إلى شخص ميت وهو يقول: مالك يا أستاذ فيه حاجة؟ لابدّ أن في الأمر امرأة. هل قلت له أن أميمة ليست امرأة، وإنما طالبة مفعوصة في نهائي طب؟ آه.. تصور.. بنت مفعوصة، وتفعل بك هكذا! كلهن كذلك يا أستاذ انظر.. فك أزرار قميصه، فلمحت مرسومًا على صدره نقوش في لون الحناء.

كانت أضواء الشارع تسقط عليها فجأة؛ فتدب فيها الروح لحظة ثم تختفي. والتاكسي يسير في انسيابية فوق الكورنيش.. سأحكي لك القصة فيما بعد. أشعر أننا سوف نصير أصدقاء.

المهم الآن أن نتماسك. في داهية كل نساء العالم. كلهن بنات لبوة. لماذا أصر "النبوي" أن يعطيني ورقة بها اسمه وعنوانه في (أبو بكر الصديق) المتفرع من شارع السوق بباكوس

عندما وصلنا إلى المندرة؟ لماذا رفض أن يتقاضي مليمًا واحدًا نظير توصيله لي، وهو يشدّ على يدي؟ هل كنت ميتًا إلى هذا الحد؟ ثم تقومين أنتِ بإغلاق باب المكتب هامسة: فليذهب الواقع الموضوعي في داهية، وتسكتين فيروز، وكنت أنا أسكت وشيش السخان.. ما هذه السكينة وما هذا الهدوء؟ لماذا ترد روحي إلى جسدي مثل تيار؟ ربما سمعتك تقولين:

"كما أن العلوم الرياضية تضع بين يدي علماء الرياضة مسائل جديدة تدفعهم إلى رموز جديدة.. هكذا المطالب المتجددة في المجتمع، وفيما وراء الطبيعة تدفع الفنان إلى البحث عن لغة جديدة وعن وسائل فنية جديدة".

وربما قلت لك أن "سارتر"عندما كتب ذلك كانت عينه عليك أنتِ. كان يعرف بأن البحر سوف يقذف بك فجأة في زمن قادم، وأنك ستملأين الإسكندرية بالرموز الجديدة، لكنه – سارتر – لم يكن يعرف بالتأكيد أنك سوف تتركين المكتب وتأتين تجلسين إلى جانبي بهدوء.. تضعين يدك الدافئة فوق خدي، تحسين نبضي: الله ما لك؟!.. أنت أصفر قوي، كأنك ميت. وأنا أذكر الهدوء والسكينة، وبقايا من صوت فيروز في الغرفة.. أتمدد فوق الفوتيه، وتتمددين إلى جواري وحينما حصل كل منا على الآخر، كانت الروح قد ردت إلى جسدي كاملة غير منقوصة، وكان

صوت ميكروفون الفجر يمزق كل هذا السكون: صباح الخير أيتها السلحفاة، فتهمسين في خبث: سلحفاة إيه بأة.. صوتك وهو يتسلل إلى أذني، عيناكِ وهما تتفتحان، هرولتك الجميلة، وأنت تعيدين ترتيب المكتب. لماذا أشعر بالروح وهي تسري؟ هل الإسكندرية جميلة دائما هكذا في الفجر؟ كان عليّ أن أغادر.

أخرجت الورقة من جيبي: 63 شارع أبو بكر الصديق المتفرع من شارع السوق.

لابد أن "النبوي"نائم الآن، كان الشارع خاليًا تقريبًا، وأخذت أبحث في أرقام العمائر 61، ثم يافطة صغيرة أسفل 63 – النبوي همام – منزل صغير مكون من طابق واحد.

ترددت كثيرًا قبل أن أضغط الجرس، ثم فتحت لي امرأة سمينة بيضاء، كانت مندهشة قليلا: النبوي موجود؟ ورأيته يقف خلفها مباشرة: نعم موجود يا أستاذ.. اتفضل..

وسعي يا ولية.. أزاح المرأة قليلًا في عنف، أجلسني فوق كنبة في الصالة، كان يلبس الفانلة الداخلية وبنطلون بيجاما. قال: لحظة واحدة.. ثم اختفى فجأة، جلست بالصالة المزدحمة بالأشياء، بينما أرتب العبارات، التي سوف أقولها، لماذا هجمت على بيته هكذا في الفجر؟ واكتشفت بأنني لا أجد سببا معقولا لذلك.

ربما كانت تلك الطيور المرسومة فوق جسده هي التي تشدني، عندما ظهر فجأة وقفت دون أن أشعر وقلت: أنا أسف.. الوقت غير مناسب بالمرة لكن..

ولا.. لكن.. ولا حاجة يا أستاذ.. كنت أشعر بأنك ستأتي. تصدق بالله.. أني انتظرتك ليلة امبارحة.

كان قد ارتدي قميصًا أبيض فوق بنطلون البيجاما فيما راح يكمل: كل من يرى هذه الطيور لابد أن يأتي.. هي في الحقيقة ليست طيورًا.. انظر. رفع القميص فبانت بطنه بالكامل، فوق ظهره أيضًا عندما استدار. لم تكن طيورا بالفعل. كانت أعضاء ذكورة وأعضاء أنوثة مرسومة بعناية وكأن فنانًا محترفًا قد حفرها.كانت مرسومة بترتيب غريب في متتالية هندسية بأحجام مختلفة.. فوق البطن والظهر فقط. أما تلك المرسومة فوق الكتفين والساعدين فكانت طيورًا بالفعل، كنت قد لاحظت ذلك عندما نبهني "النبوي": هذه ليست طيورًا أيضا إنها بلابل. كن يرسمنها وهن يرددن: هذه بلابل الحب أيها المصري. هل تريد ريالات.. دولارات؟ وكن يضحكن بينما ظهري يا أستاذ يؤلمني كأن ساقية تشفط منه السائل. ثم رميننى أمام البيت والفاجرة التي اصطادتني تحلف بشرفها إن رأتني مرة ثانية في الحي، كله سوف تسلمني إلى من لا يرحم. كان قد ارتدى قميصه مرة ثانية،

وسمعت المرأة تتكلم من الداخل: عايز حاجة يا سي نبوي؟ جاء الصوت مغايرًا، أنثويًا جدًا كأنها تتكلم من بطنها، به غنجة خفيفة ربما لأنها مستيقظة من النوم توا: نجيب شاي؟ لم يرد "النبوي" كان يسترد ذاته من المملكة.

ثم أكمل أنت لا تعرفهم يا أستاذ.. يهرولون دائما في الشوارع في أوقات الصلاة يهشون الناس كالذباب.. آه لو حدث واضطهدوك.. ستقطع رأسك بالسيف في ساحة المسجد الكبير بعد صلاة الجمعة.. القصاص.. القصاص.

كنتِ – لحظتها – ما زلتِ في مسامي. في شفتي طعم أعلى العنق عند منبت الشعر. وفي قلبي نهدك الفتي وهو منتصب. وفي كفي استدارة الردف المعجز، عندما تهمسين بالآه سكندرية خالصة، فتسري الكهرباء وتتفتت الخلايا ويصير الجسد مهيّأ لاستقبال الروح التائهة، بينما جسدك على أهبة الاستعداد أيضًا لامتصاص السوائل الدافئة البيضاء.

كنت ملتصقًا به، وأنا جالس في هدوء أستمع إلى النبوي، وهو يحكي عن حقه الضائع، تفتحت حواسي فجأة عندما ذكر اسمك: بعد رجوعي وكلت محامية معرفة.. مكتبها قريب من هنا.. شرحت لها القصة وقلت لها عايز حقي.

لماذا تستيقظ اللحظة هكذا أو تقف في حلقي؟ ولماذا يلح عليّ القول: عندما تحب امرأة في مدينة يصير لها طعم آخر.

هل أنت الآن في الإسكندرية؟ لماذا كل هذا الشبق والموهبة الأنثوية، التي ربما تفوق الشعر في بدنك؟ ولماذا تسيل في دمي الآن – محطة الرمل وصفية زغلول وتمثال سعد المواجه للبحر والنبي دانيال والكريستال والنادي النوبي – مثل عصارة يقذفها المتوسط في شراييني. كنتِ قد قلتِ لي: سوف أراك في العاشرة، عندي محكمة اليوم. سأراك في الكريستال لمدة نصف ساعة. وربنا يسهل.. خلاص.. لماذا تخرج "خلاص" هذه وكأنها قطرات شهد في فمي؟ ولماذا تعطي أحبالك الصوتية للغة مذاقًا خاصًا؟ ونكهة هي الفجر الجميل والدعوة القاسية لجنة مفارقة ويجيئني صوت "النبوي"مثل نشاز: عايز حقي.. مكتبها قريب من هنا جدًا، هي طيبة وخدومة، بنت بلد بصحيح.. قالت سأحاول. ثم يسألني: حتقدر تعمل حاجة؟

ثم سمعته يصرخ فجأة في المرأة البيضاء، التي فتحت لي الباب. كانت واقفة أمام الباب مثل جملة زائدة. ترتدي زي الخروج وتحمل حقيبة يد جلدية سمراء وكبيرة نسبيًا وغير مقفلة جيدًا، يطل منها طرف قميص النوم التي كانت تلبسه حين رأيتها في دخولي: أنا ماشية، وهي تنظر إليّ أخذت في تسبيل عينيها

المكحولتين فبدت مثل كلب بحر ضخم يسترحم المتفرجين. كان يقول لها: غوري.. غوري مع السلامة. فيما راح يغمز لي بعينيه: امرأة شرموطة تأتي عندما لا تجد مكاناً تنام فيه. أعرفها منذ فترة طويلة. كانت زميلة لأختي الوحيدة"نشوى"لكنها انحرفت.

بعد أن خرجت المرأة تجسد الفراغ وتمكنت من رؤية"النبوي"ربما للمرة الأولى. في الخامسة والثلاثين تقريبًا، ممتلئ الجسم، لا هو بالطويل ولا بالقصير. له شارب كث وأسود ربما على حساب صلعته البارزة. عيناه مستديرتان مثل عيني حية، وله أذنان كبيرتان بلون مختلف عن لون بشرته المائل إلى الدكنة، تكوينه الذي يوحي بالقوة ثابتًا، يعطيه شكلًا لائقًا إلى حد كبير؛ فيما عدا أنفه الطويل قليلًا والمدبب كمنقار طائر جارح. غير أنه من الممكن أن يدمر كل ذلك إحساس بأن شيئًا ما مهتز في ذلك التكوين. كصورة زاهية لكنها غير ثابتة على شاشة. جلس قبالتي فيما راحت عيناي تمسحان الصالة: أجهزة كهربائية عديدة وغير مستعملة. ثم انتزعني صوته مثل لطمة مباغتة: أختي الوحيدة نشوى هي صديقة أيضًا لتلك المحامية التي حدثتك عنها. منذ أن مات أبي وعلى فكرة مات أبي في نفس يوم ولادتها. غريبة يا أستاذ مش كدة؟ غالباً ما تموت الأم ليلة ولادة الطفل وليس الأب. القدر يلعب معي لعبة غريبة،

المهم.. مات الرجل، وترك لي زوجته والطفلة وهذا البيت. تزوجت أمي بعد عام واحد، وذهبت لتعيش مع زوجها في "محرم بك"وأخذت معها الطفلة. تمكنت أنا من استكمال البيت لكن"نشوى"تقف في زوري دائمًا. هي بنت قوية طول عمرها ولسانها أطول منها وجلابة مشاكل. لماذا عندما قال "نشوى" أحسست بأنك حاضرة؟ كأن الضوء الذي يدخل من النافذة أو الهواء المشبع برائحة البحر. هل نحن نائمان الآن فوق الفوتيه الأزرق بمكتبك وأنت تهمسين:

حاسب.. حاسب.. بهدوء.. بهدوء.

لماذا هذه اللحظة ممتدة ومطلقة ونهائية كأنها الدهر؟ ولماذا غاب عني صوت "النبوي" فجأة هكذا؟ وما هذه البلابل التي تقفز من جسده وتملأ الصالة؟ تقفز من الساعدين وتحلق، تهوم وتزأر كطائرة نفاثة تحوم حول الهدف. تحط فوق الأجهزة العديدة بالصالة، ثم تصرخ مثل منبه ضخم: سوف تراها في العاشرة، في مقهى الكريستال.. في العاشرة.. في العاشرة.

(3)

تدير ظهرها له، ووجهها للبحر. تزعجه أصوات الماء في هديرها وصخبها، وهي تضرب الشاطئ بعنف، ويأتسي صوتها واهنًا: لازم تعرف يعني؟ فلا يرد.

أحجار القلعة متراصة في صمت وهي تستقبل الزبد وترده مثل جمل يجتر في هدوء. فقال: يعني..

التفتت إليه الآن، أحكمت الإيشارب، تضم قبضتها، وكأنها ترغب في أن تضرب أحدًا، لكنها تقول في هدوء: كان عنده عجز.. عجز جنسي.. استريحت دلوقتي؟

وكانوا يحومون حولها، رجال بأسمال بالية، يحملون صناديق خشبية مزوقة في داخلها سجائر ومستطيلات من البسكويت المغلف بورق أحمر، كان يلمع، بينما السجائر في أفواههم تتوهج على الرغم من الشبورة، التي تصنعها نتف الأمواج، وهي تقفز فوق الشاطئ.

فقال: ياه. كانت ترغب في الجلوس، نظرت إلى قاعدة النافذة الضخمة ونظرت إليه قال: آه.. كانت قاعدة مرتفعة جدًا، وهي القصيرة، فحملها من تحت الذراعين، وهي تحاول أن تبعد جسدها عن جسده، لكنّها لابدّ قد شعرت بتوتره؛ فاحمر وجهها وهي تجلس. قالت: شهر.. شهران.. سنة، لكن لا فائدة، كان يبكي ويدفن وجهه في الحائط بعد كل فشل.. ثم يصير عصبيًا جدًا،

وصعب التفاهم معه، لم أتمكن من فعل شئ وأنا الطبيبة أعرف كل شئ تصور.. فعلت أشياء فظيعة أحسست بعدها بالخجل.. وعندما شعرت بأن لا فائدة قلت له طلقني.

قالت ذلك، وكأنها تفعله الآن. كانت تشاور بذراعيها ناحية البحر وقد اضطرت إلى خلع الإيشارب فأضاء شعرها الأسود الكثيف وهو يتطاير في الهواء.

ـ هل أحببته جدًا؟

ـ لا أعرف.. كنت أنت غارقًا في كتبك وبوهيميتك وكتابتك التي بلا معنى. لم تفكر أبدًا فيما كنت أحتاجه، لم تفهمني أبدًا، ابتعدت في الوقت الذي تقدم هو فيه، قال: نتزوج ونسافر إلى اليونان، بعد سنة أعطيت له العلبة كاملة بذهبها، وعدت، أنت السبب.

كانوا يقتربون الآن، هؤلاء الرجال الذين يحملون الصناديق يحومون حولهما ثم يذهبون. هي جالسة فوق قاعدة نافذة القلعة الحجرية، وهو واقف وظهره للبحر، رائحة اليود وزفارة السمك تحوم أيضًا، قالت: صندوق جميل من أندر أنواع الخشب، مشغولة حوافه بالأرابيسك بحجم الكف، وضعت الدبلتين في داخله وأعطيته له. كنا على الشاطئ في الناحية الأخرى بالضبط من هنا، فأمسك الصندوق قليلًا بين يديه وقذفه في البحر.

ـ هل كان يحبك جدًا؟

ـ لا أعرف. كان وسيمًا ومتعجلًا، تزوجنا بسرعة وكنت أنت تبتعد.

شعرها أسود وكث، يكون هالات من الضوء وسط الضباب، فيقترب قليلًا، ويلامس ركبتيها، وهي تنكمش حين يفاجئها الماء في رشات متتابعة. قال لي: سأشفى حين أعود إلى مصر، فقلت له: طلقني الآن.

هو يقترب أكثر. أحاطت رأسه بكفيها، وهم يحومون حولهما، مثل كتيبة من الحرس الخاص، وعلى الرغم من كونهم كانوا يرغبون في بيع بضاعتهم، إلا أن عيونهم كانت تحوم أيضًا، حتى طفى الصندوق فوق سطح الماء، كانت عيونهم تترقبه، ظل الموج يدفعه في مده وجزره، يمكث لحظات قليلة فوق الرمال ثم يعود إلى الماء، إلى أن كانت الموجة التي قذفته فوق الشاطئ تمامًا، فجلس تحت الشمس كسمكة هدتها رحلة الإياب، وخشبه الأصيل المبلل بالماء يلمع، ثم تقدم كبيرهم نحوه وهم يتبعونه، كانوا يتبعونه في خط مستقيم، بعد أن وضع كل منهم بضاعته فوق سور الكورنيش، بنظام أخذوا يتجهون نحوهما، كانت هي ما زالت جالسة فوق النافذة، وهو يضع رأسه في حجرها ناظرًا إلى عينيها مباشرة، العجوز الذي يتقدم الطابور يحمل الصندوق ويحبو صوبهما، نزلت هي من النافذة، وهو ساعدها إلا أنها لم تبعد جسدها عنه أثناء ذلك، التصقت به حين تقدم العجوز نحوهما بالصندوق، عندئذ فتحته وأخذت تتأمل الدبلتين، تقدم هو

نحوها في ترقب – بعد أن غادرهما الرجال – وقرأ اسمها منقوشًا في باطن إحدى الدبلتين، كانت تتأوه وهي تبتسم، إلا أنها قد أمسكت بإصبعه ووضعت الدبلة، كذلك وضعت الصندوق فوق قاعدة النافذة المرتفعة، بينما البحر يصدر أصواتًا عالية، والموج يشتد، والزبد يتزايد بعنف، والصندوق قابع في مكانه – فوق القاعدة – لا يريم.

الجزءالثالث

إمكانية طرح الأطفال

هذا هو البحر

في الصباح الباكر، حينما ركبت قطار الإسكندرية، وكان مزدحمًا قليلًا رغبت أن أشعل سيجارة.. لكنني لحظة شرعت في تدخينها، وضعت الطرف المشتعل في فمي، فاحترقت شفتي، وحزنت لأنني لن أتمكن من تقبيل أميمة – المفروض أنها خطيبتي، مثلما يقول جدي دائمًا، التي لم أرها منذ سنوات – لن أتمكن من تقبيلها حين أراها في العشية.

في العصر، وصلتُ إلى المعكسر في المندرة، قالوا لي اخدم نفسك بنفسك، لكنني حين هممت بطهو طعام الغذاء، أحرقت يدي، لأنّ أمي هي التي كانت تفعل لي ذلك، ثمّ حزنت لأنني لن أتمكن من مداعبة شعر أميمة الجميل عند لقياها.

قبيل المساء وبينما كنت أستعد للذهاب إلى بيت أميمة في ستانلي، وقع لوح من خشب السرير فوق قدمي فتورمت فحزنت – أيضًا – لأنني لن أتمكن من التمشاية مع أميمة في شارع الكورنيش حين نذهب إلى تلك السينما في محطة الرمل، التي لا أتذكر اسمها، وهي تعرض فيلم "مسافر تحت المطر"، وفي المساء المتأخر تمكنت من الوصول إلى ستانلي حيث فيلا أميمة فتحت لي مامتها – التي هي امرأة عمي في نفس الوقت – الباب، ورحبت بي في دهشة وعندما سألتها عن الأحوال وعن

أميمة قالت بدهشة أيضًا: إن أميمة قد تزوجت وسافرت منذ أعوام ومصمصت شفتيها وهي تقول ما أنت عارف. فلم أحزنْ، ولكنني قلت هذا هو البحر.

إمكانية طرح الأطفال

كانوا يتأملونهم في صمت، الواحد منهم ممتطيًا حماره أو جارًّا بهائمه، ثم ينظر ناحية أشجار السرو والجزورين المكدسة بالأرض الواسعة خلف صهاريج المياه إلى أعلى حيث الأطفال المعلقين في الأشجار، ثلاثة من الصبيان وصبية ملفوف حول أعناقهم حبل سميك كالحبال التي يجرّون بها البهائم، وأجسادهم تتأرجح في الفراغ. لم تكن الشمس قد أضاءت بعد، وكتل الضباب تلف المبنى الأبيض الباهت لصهاريج المياه والبيوت المجاورة، ما إن يخرج الرجل من داره يصدمه الفراغ والجثث، حتى يمسك الزراعية، ويستمر في سيره نحو الغيطان المحيطة، ثم أن الرجال القاصدين الجامع والنسوة الذاهبات لقضاء حاجتهن وسط الأشجار يلفت نظرهم المشهد؛ فيتأملونه قليلًا، تنظر الواحدة منهن إلى أعلى كأنها عمياء وسط الضباب بينما البول الحار يندفع بين ساقيها صاعدًا منه بخار الصباح وكوابيس الليل. قد تكون إحداهن زوجة أب لواحد منهم – الأطفال – وربما تتذكر أكياس النايلون التي كان يعلقها نفس الأطفال فوق نفس هذه الأشجار خازنين بها سرقاتهم المتكررة من سوق الخميس، خضر وفاكهة ولحم وسمك، أو ربما تستعيد مشهدهم – الأطفال

– وهم عرايا تمامًا – بمن فيهم الطفلة – وهم يستحمون في الترعة ويعبثون بأعضائهم في تبجح، وهم يهرولون في الغيطان الواسعة عرايا تمامًا يشوون السمك المسروق ويأكلون اللحم المسروقة والفاكهة المسروقة، وربما أيضاً تتذكر – المرأة – قرار كبار تجار السوق، لكنها (وبعد الانتهاء من قضاء حاجتها) تقوم... تقوم وهي تتفادى النظر إلى أعلى، إلى الأجساد الصغيرة المعلقة والتي تتأرجح في الفراغ.

حزن في الحديقة

اتصلت بي أميمة مثل المرات السابقة ليلًا، كنت مكتئبًا كعادتي أرقب الكون، وهو ينفرط من حولي، كنت أخاف بالتحديد من أن يعثروا على جثتي، ويكتشفوا أن عهدتي ناقصة: مائة امرأة على الأقل كان مكتوبًا على جسدي أن يتعرّف عليهن، فلنقل حوالي خمسمائة زجاجة بيرة كان من المفترض أن يشربها دمي.. ولنقل كذلك أنّ طنًا من الورق المكتوب كانوا سيكتشفون نقصانه. لكنها قالت بهسيس مغر: هتيجي بكرة مش كدة.. لازم تيجي. ثم أردفت في حنية: نفس المكان ونفس الزمان.. لسه فاكر؟

فكان عليَّ أن أذهب إلى الحديقة، وكان عليَّ أن أقول لنفسي بأنها تأخرت كالعادة، وأننا في الساعة الخامسة والأربعين الآن ولم تحضر، وكان لابد من انتظارها حيث أنها قادمة من بعيد. جسدها الضئيل منغلق على ذاته، مقفل، لم يُمس، وجهها خمري بيضاوي، أنفها دقيق ومشرئب إلى فوق، شفتاها رقيقتان مزمومتان كأنهما خطان ضائعان في الأفق، غابة شعرها الأسود الكثيف مكتفية بذاتها، وأيقنت أنها لا تحترم مواعيدها دائمًا، وأنني لم أنبهها مرة واحدة، لذلك قررت هذه المرة أن أعلمها ألّا

تتأخر مرة ثانية، وكانت الحديقة تفتح أبوابها، وأنا قد قطعت تذكرتين بجنيه مصري كامل، ولحظة حضرت "أميمة" دخلنا مباشرة، في البداية رفضت أن تمسك يدي، لكن بعد ذلك أخذت تعبث بعصبية بأصابعها الدقيقة في كفي، فقلت لها: لقد تأخرت جدًا، فقالت ببساطة: أنا آسفة، وقلت لها: أنت جميلة جدًا، فابتسمت، وسألت: ها لا زلت تحب فيروز، فأجبتها بنعم وهكذا دخلنا الحديقة. فأنا أعرف أن دمي هو دمها وأن دمها هو دمي، وأننا أبدًا لن نجد دمنا معًا، فنحن لم نفعل الجنس سويًا أبدًا.

قلت لها ذلك بصوت واحد ومحدد، وأنا أنظر إليها، في عينيها، أخذت تنظر إليَّ.. كانت خائفة. في عينيها السوداوين المسحوبتين مثل عيون الفراعين، كمية هائلة من الخوف، كانت منكمشة، فوددت لو أخذتها هكذا أمام كل من في الحديقة، ونحن في الوسط تمامًا بهدوء أنزع عنها الإيشارب الأسود الذي كانت قد لفته حول رأسها، فستانها الخفيف الذي يلفها كاملة، أعريها – تمامًا – بشكل مباغت لكن في هدوء، وأحصل عليها، وأنا أعرف أنها تعيش في زمن مختلف: أنت تقبعين يا "أميمة" في زمن الصحراء القديم تحاربين بضراوة توجسات الجسد ونمنمات الخلق والتكون كلّها، بينما الشاعرات المهووسات بالجنس والمعرفة يقتحمن عالمك المقفل.. هل أنت معي؟ كانت لا تزال خائفة،

تجلس على طرف المقعد الرخامي الأبيض كأنها قوقعة تتطلع إلى العالم برعب تنكمش حين يفاجئها الضوء رابضة في خنوع ذليل لقبضة الإيشارب الأسود الذي يحجب عنها الشمس، هي في متناولي الآن، أمد يدي وأمسك يدها، كفها صغير ككف طفل، أصابعها باردة لكنها ممتلئة بالرغبة، في حركتها العصبية الدافقة في كفي مشتاقة للفعل والقبض، سوف تخرج الآن من الشرنقة وتتحرر فأمد يدي، ها هو ذا الإيشارب الأسود في قبضتي، الآن أشعة شمس الحديقة تتخلل غابة شعرها، وهي ساكنة، مغلقة، لكنني قد رأيت ما رأيت: "مئذنة مسجد متلألئة في ظلمة صحراوية، ساقا امرأة خمرية مشرعان في الهواء، قرن ثور ضخم شديد السواد طائر مثل سهم، عملة ورقية من الريالات الجديدة تصغر صغرًا خفيفًا، عدد من الفوط الصغيرة، تستخدمها النسوة عند الطمث وأكياس جلدية ملونة من عوازل الحمل منتفخة، تتأرجح بين السماء وبيني، أسراب من الهجن والغربان والطائرات النفاثة شديدة السرعة تكون سحابة سوداء طائرة، وهي "أميمة" ربما قد رأت، لأنها انسحبت إلى خنها في فزع، وكنت أنظر إليها في قلق، وهي تتحول، كان ذلك عكس المرات السابقة تمامًا، كانت إلى جانبي فوق المقعد، هي نفسها "أميمة" لكنّها

كانت تتحوّل، تتضاءل حتّى أنها صارت صبارة صغيرة صلبة، صبارة صغيرة صلبة تنغرس في روحي.

ثم أنني قمت وخرجت من الحديقة وحدي.

المغنية الصلعاء

مع الاعتذار ليوجين يونسكو

هل الأشجار الضخمة الكثيفة التي تحتضن مبنى النادي هي أشجار صفصاف؟

كانت الأشجار الكبيرة تحط بثقلها فوق المبنى الأبيض فرنسي الطراز، الهادي، المكون من دورين يحوطهما حوش كبير هو في ذات الوقت حديقة ترص فيها الطاولات، يحيط بكل ذلك سور كبير يفصل النادي عن البنايات المحيطة، يصل بين الدورين سلم من الخشب البني النظيف دائمًا.

حين تصعد المرأة قاصدة مكتبها بالدور العلوي يرن صوت كعبي حذائها فوق الخشب، وهي كذلك تستطيع أن تميّز الأصوات الصاعدة إليها عن طريق ذلك الصوت، صوت ارتطام الأحذية فوق خشب السلم.

هل تعمل هذه المرأة سكرتيرة فقط؟

كانت قد تمكنت وفي مدة وجيزة معتمدة على كونها طويلة وبيضاء وبقليل من الحيل الأنثوية الموروثة بدقة متناهية، من إزاحة منافستها وصارت هي التي "على الحجر" مثلما قلن بعد

ذلك، وكانت قد تمكنت من ترحيلهن والاستحواذ على الآلة الكاتبة والمكتب الصغير وقلب الرجل الكبير.

هل كل عصافير الأرض قادرة على الغناء؟

في حين أن غردت العصافير فوق الأشجار التي تحتضن النادي والمعتقد أنها أشجار صفصاف كانت – تلك المرأة – تدندن بأغنياتها الوحشية وهي تدق فوق الآلة الكاتبة أو تأكل أو تلف شعرها الكستنائي الطويل الخشن في قوقعته بعد أن تفرده متعمدة أن يراها الرجل وهو يمرق داخلًا أو خارجًا بينما هي – تلك المرأة – قد تأكدت تماماً من أن رفاقها في الخارج – والذين يعشقون مثلها الغناء – قد فشلوا جميعًا في رؤية ذلك الكستنائي المبهر من بعيد، الطويل الذي تفرده على ظهرها فيصل إلى الكعبين، تظل تتأمل الجدائل منفلتة من جوربها في نرجسية وانبهار كأن ذلك أيقونتها المقدسة، كأنه كائن حي مستقل ظلت طوال عمرها تعتني به وتغذيه، كانت تكومه – ذلك الكستنائي – في يدها مثل كنز وتتحسسه بينما تنفجر في مرآة مكتب الرجل أشعته اللامعة كشمس متقدة، في الوقت الذي يكون هو – الرجل الكبير – قد شبع وارتوى تكون قد كورته ووضعته في جرابه، وابتسمت وهي تغادر المكتب الفخم إلى مكانها الضئيل.

ما فائدة الغناء الآن؟

ستظل تلك المرأة تردد السؤال وهي تركض في شوارع المدينة الصغيرة – مدينتنا الصغيرة – فاردة ذلك الكستنائي الخشن الطويل، وقد لوثته الأتربة والندى فوق ظهرها العاري، ستظل تركض وتركض، وتركض. ربما تجد إجابة.

ما أظنه عن الديوك

إثم أول

الديك له عرف جميل، الديك يتجول في الحوش الكائن بفضاء سوق الشيوخ التي تُنطق"سوج الشيوخ"، بحرية مطلقة، بحزم، بخيلاء، الديك يتحول في الضواحي بشراسة، لأنه قد تمكن وبخبث تاريخي لا مثيل له من إزاحة كل المنافسين، في حركة خاطفة، وذكية، الديك الآن هو المسيطر، الأب، العائل، يفرد جناحيه فوق الجميع، هو قد استعار من الثعلب عينيه، ومن الأوزة أمومتها، ومن النسر قوة انقضاضه، ومن الهدهد بلاغته، أليس هو الذي كلم سليمان النبي؟ وبالمناسبة الديك شعر أنه لا شريك له، فأصدر أوامره بأن تؤذن كل الديوك باسمه وأن تصلي له كافة الدجاجات في طابورها الأسبوعي الذي كانوا يسمونه طابور الوطء، حيث يقفن كلهن في يوم محدد من كل أسبوع، في طابور طويل، من أول الحوش إلى آخره، كلهن يقفن، جميعهن، مثل طفلات جميلات يقفن في طابور التلقيح ضد شلل الأطفال، أو كزهرات باسقات في بستان كبير يتلقفن رشاش ماء البستاني الأوحد، في البداية شعرن بالخوف والدهشة، ثم انتهى الأمر بتلقفهن نطفته المقدسة في تلذذ، وهن يرددن الأهازيج، الأهازيج

المنتقاة من مقاماتهن الموغلة في الحزن الأبدي، مواويلهن الجنوبية المشحونة بالشجن، والزهرات الشهيدات يتساقطن، يتساقطن فوق حواف الترع، على شواطئ النهرين، وفي البراري، ثم حدث بعد أن تيقن الديك ذو العرف الجميل بأنه لا شريك له، أن تصدع الكون، زلزلت الأرض وأمطرت السماء نارًا، حتى كانت سوج الشيوخ أن تختفي، وانكسر العرف الجميل للديك، لكنه – ويا للغرابة – ظل يحرص حرصًا شديدًا على أن يستمر الطابور.. طابور الوطء.

إثم ثان

المرأة التي في الصيدلية همست لي بعد أن ألصقت وجهها الدميم بوجهي: عايز هرمونات.. تخليك كده؟ ثم أطبقت أصابع يدها الطويلة عدا إصبعها الكبير مشيرة إلى ما تفعله الهرمونات. فقلت لها وفي همس أيضًا: نعم.. بشرط أن نجربها معًا. فطارت العصافير التي كانت مرسومة فوق صدغي، وحطت فوق صدرها.

الشارع الكبير في المدينة الصغيرة، سأعبر الشارع، وأجد في مواجهتي"قصر الثقافة"، من المفترض أن أتحدث عن الكاتب يوسف إدريس اليوم. كنت قد لاحظت في برنامج تلفزيوني قديم،

أنه يشبه إلى حد كبير الديك ذا العرف الجميل لكني نويت أن أتحدث عن الدروب المقفلة التي صنعها. عالمه الجاهز المغلق الذي يفاجئك به.

قلت: شيد إدوار الخراط حيطانه العالية المذهلة في الأربعينات من القرن العشرين، وقد آثرت عدم قول ذلك عندما رأيتهم: يتدثرون بالشيلان الغامقة والطواقي الصوفية، الأحجار الضخمة الصلبة رابضة فوق صدورهم، والحبال الثخينة تلتف حول أعناقهم.

قلت: هذا تنافر واضح بين المكان والزمان، وكنت أنظر إلى قيشاني القصر الجميل والباركيه اللامع تحت أقدامهم فخرجت. الشارع الكبير في المدينة الصغيرة. إذن من الأفضل ان أعبر الشارع لأجد الصيدلية في مواجهتي.

إثم ثالث

المرأة التي تقطن شقته، زوجته طبعًا، دأبت على الصراخ منذ صباح السبت، الأولاد لا يذاكرون دروسهم، في البيت أشياء كثيرة خربانة ولابد من إصلاحها، أمبوبة البوتاجاز فارغة وشطافة الحمام بايظة، متى تنزل من عالمك السماوي يا ديك البرابر

وتعيش معنا؟ هكذا تظل تصرخ طوال نهار السبت، كذلك أيام الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء، وفي صباح الخميس تهدأ قليلًا، وتبدو طوال فترة النهار مثل قطة تتمسح بجسده، وفي الليل عندما ينام الأولاد كانت قد هُيئت له، وكان قد هم بها لكنه كان قد كف طوال أيام الأسبوع عن أن يهم.

الجزء الرابع

مساءات مرة

الموتى لا يخافون الملائكة

هاتفني أخي إبراهيم قال: عمتك"شاهيناز" بتموت...

أنا لا أحب استعمال لفظ"هاتفني" لأنه يشعرني بأنني كاتب عتيق، ولكن ذلك لا يمنع من أن أخي إبراهيم شخص فظ، هو فظ لأنه يحب دائمًا تسمية الأشياء بأسمائها.

فمثلاً ما كان يجب أن يقول بأن عمتنا تموت، كان من الممكن أن يقول بأنها مريضة جدًا أو أي قول آخر أفهم منه ذلك، فلنقل إذن أنه قد اتصل بي، أو أن أجراس تليفوني قد دقت فجأة: عمتك شاهيناز بتموت.

شجيرات الجهنمية بورودها الحمراء والتي تحتضن سور بيت عمتي شاهيناز دائمًا ما تجذبني، في العصارى نقعد تحت تعريشة العنب بالحديقة، تنشغل هي بسقي الأشجار وإطعام الحيوانات وتشاغبني: قل لي يا حبيبي.. أنت بجد"شعوعي"؟ ثم وهي تتوسلني: يعني ما بتخفش من ربنا؟!

البراد الذي تصب منه الشاي يلمع وسط حمرة الورود الجهنمية، حين تمسسها أشعة الشمس الغاربة، براد نحاس لامع تمسكه بيدها البيضاء ذات العروق واضحة الزرقة، وتحتضن الكوب الزجاجي الصغير، وهي تعطيني إياه: أمال.. أمال ولاد الكلب حبسوك ليه؟!

الكليم الذي تفرشه فوق أرضية الحديقة وسط أوراق العنب الجافة والقطط والكلاب مصنوع من الصوف البلدي ومطرز بورود حمراء أيضًا، الدجاج والبط وكافة الهوام الطائرة تنام في هدوء حولها كأم رؤوم، بيتها وسط الحقول هو المأوى والملاذ، أقترب منها، أنظر في عينيها المرهقتين وأشم رائحة الخوف والقلق، رائحة الأرض الجافة؛ حيت تخترقها الماء في سيولة وعنف، طعم الطين في حلقي وهي تؤكد: إوعى تكون كده.. لحسن ربنا يوديك جهنم.

الجهنميات متراصة وملتفة حول السور ومتحدية بورودها الحمراء، مستفزة، تقبض فوق ضوء الشمس القليل فتزداد توهجًا حتى أن الليل يبرك فوق الحديقة مثل جمل حرون وعمتي"شاهيناز"تلملم أشيائها، تشبثت بحقل البرسيم في عينيها بعد أن قاطعني أخي إبراهيم وبقية العائلة إثر خروجي من الحبس، لأن الفكرة التي كانت تحركني تعمل ضد مصالحهم، ولأنه شاذ، ابن عاق، مجدف، بل إنني فضيحة، فتضمني إلى صدرها: خايفة عليك يا حبيبي.. في الآخرة.

صمتت الأجراس، اختفى تمامًا صوت أخي إبراهيم، أجوس وسط الحقول حتى أصل إلى باب الحديقة، لا يدهشني أن أجدها – الحديقة – وقد جفت تمامًا، كبيت هجره ساكنوه فصار كئيبًا

وذليلًا، الجهنميات ذبلت ورودها وهي تنظر إليّ في ريبة وتوجس، تخطيت باب الحديقة بسرعة، لأجد نفسي أمام باب حجرة عمتي"شاهيناز" وهي ممدة فوق سريرها النحاس الأزرق القديم، نائمة على ظهرها ووجهها مقابل باب الغرفة، اللحاف الأحمر الباهت يغطيها بالكامل، حولها تلتف العائلة كاملة العدد، أخي إبراهيم وبناتها وكافة نساء الأسرة يلبسن الأسود ويحطن بالسرير وأذرعهن ممدودة مثل أجنحة حتى أنني ظننت أنهن حفنة من الملائكة ينتظرن الصعود، تسمرت أمام الباب، روحها لم تغادر بعد لأنها كانت تتكلم مع إحدى بناتها بصوت مسموع، وعندما وقعت عيناها عليَّ حدث أن الكلب في الحديقة عوى بشكل مرعب، اهتزت إحدى أعمدة السرير النحاس بقوة، وحل الصمت، عيناها فقط تنظران إليَّ في رعب لم أشاهد مثله من قبل، عيناها الخضراوان صارتا بؤرتين مرعوبتين لا لون لهما، بؤرتين للحب والكراهية، للقبول والرفض، لم تنطق، فقط كانت تنظر إليَّ في توسل، في خوف، كأنّها لا تعرفني، أو تتصنّع أنها لا تعرفني، مثل إنسان وقفت شوكة في بلعومه، أو امرأة باغتها زوجها عارية مع رجل آخر، بؤرتين لا لون لهما تحدقان فيما ورائي، خلف الباب، فأيقنت بأنني لابد أن أنصرف، استدرت

وأعطيتها ظهري، وأخذت أغادر ببطء كلص، وأنا أنظر إلى حفنة الملائكة التي تحيط بعمتي"شاهيناز" وقد تهيأت تمامًا للطيران.

أنثى وحيدة ترفض الطيران

للعصافير الصغيرة الملونة، التي يسمونها عصافير الزينة حكاية، لم تكن لي علاقة قديمة بها؛ إذ أن توحّش العالم قد ابتلعني في جوفه، بعد إنصاتي إليها ذات مرة عقب اقتحامها عالمي المغلق، بهرني غناءها، صوتها الجميل الذي لا يكل ولا يمل، نغمات شلال تخترقني وتمس ذاتي، تطربني .

كنت قد خرجت من عالمي المتوحش، وانطلقت في عالمها المليء بالشجن، بالأغنيات، حينما أهدتني ابنتي الكبرى أحد اقفاصها، قفص أصفر جميل به ذكر وأنثى، في اليوم الأول بذلت جهدا للتعرف على كل منهما، الذكر أكبر قليلًا و لونه أزرق في لون سماء صافية، كثير الحركة مشاغب يتحرك داخل القفص كقرد مشاكس، صوته عال و مزعج أحيانًا يمنعني من التركيز في القراءة، الأنثى هادئة مسكينة شجي غناءها مثل امرأة حزينة، جسدها الصغير المدملج منقرش بألوان متعددة، يغلب عليها الأصفر الناعم تتخلله لطشات من ألوان زاهية خاصة بالأجنحة والذيل، صوتها رقيق به شجن وحب، به دلال، أرقبهما معظم الوقت، وأنا جالس تحت القفص الذي علّقته بالشرفة، وهما يتعانقان، منقاراهما ملتصقان طوال الوقت على الرغم من أنهما مستمران في التغريد، نفس المنقارين يتناولان بهما الحبوب

الصغيرة والحب الكبير، وموسيقى جميلة من أجمل موسيقى الكون.

في صباح اليوم التالي فوجئت بباب القفص مفتوحًا، كانت الأنثى مستكينة على جنب شبه نائمة والذكر غير موجود، بطرقة ما تمكن من فتح الباب الصغير والفرار، بعدها خلت في علاقة مباشرة مع العصفورة الوحيدة، أُصفر لها لحنا وأشاركها الغناء، استمرت دون توقع في الأكل والغناء كأن شيئًا لم يحدث.. معلوماتي تقول: إنه يجب أن أحضر لها ذكرًا آخر حتى لا تذبل و تموت من الوحدة، لكنني آثرت أن أترك لها الباب مفتوحًا كي تتمكن من الهرب، وتلحق بوليفها الذي هرب ليلة كاملة، في الصباح توقعت أن أجدها قد طارت، لكنني بوغت بها نائمة أمام الباب المفتوح تدندن بنفس الصوت الشجي القديم. بهدوء وضعت يدي داخل القفص وقبضت على جسدها الرقيق، فسرى تيار من الدفء بين لحم كفي وريشها الناعم وارتفع صوتها بالزقزقة وأخذت تنتفض داخل يدي، أخذت أربت على ظهرها الأملس الناعم، كأنني أملس على كتف طفلة، تيار من الدفء والحنان جعلني أزيد من الضغط بكفي على جسدها الصغير حتى أنني خفت أن يهشم في يدي، وضعتها داخل القفص وتركت الباب مفتوحًا.

في الصباحات التالية كنت أرقبها بهدوء وأنا جالس في الشرفة تحت القفص مباشرة أقرأ ما تغير، تتناول طعامها في هدوء تدندن أحيانا، لكنها هادئة ومستكينة، بينما باب القفص ما زال مفتوحًا.

كأنه يوسف

كانا جالسين على مقهى بالإسكندرية، كاتب مكدس بالموهبة، لكنه وبعد سنينه الطويلة لم يتمكن من تفجيرها، وشاعرة شابة متوهجة الحواس.

كانا جالسين في مواجهة البحر، بدايات تتخلق وشيء يموت، كاد أن ينتهي من قراءة قصص للمنسي قنديل، عندما هلت شمسها أقفل الكتاب، وراح يقرأ جسدها في صمت، جاءت المشاريب، فقال لها: كأنّه يوسف.

نظرت إلى غلاف الكتاب المغلق وقالت باندهاش: يوسف من؟!

– يوسف إدريس.. كأنه هو تمامًا.

بانت أسنانها كشهاب: ربما لأنهما طبيبان؟

وبانت له هكذا، كتلة من الأنوثة والشعر فأردف: ربما.. هما طبيبان عبرا بقارب القصة إلى يم الصحافة.

كانا جالسين قرب الماء كلؤلؤتين مضيئتين؛ ولأن الماء قد اشتم رائحتهما، فقد اقتربت منهما جدًا، حتى أن الموج الهادئ ـ قد جذبهما.. بعيدًا.. بعيدًا.. نحو الأفق.

أغنية على الممر[1]

تمكنت بصعوبة من اختراق شارع"شبين الكوم" متخطّيًا رتل سيارات الجبن المصفحة على جانبي الشارع، متجهًا صوب"قهوة المثلث" لكي أبدأ يومي الآسن بفنجان قهوة زيادة وسندوتشات الفول والطعمية، ركنت السيارة أمام المقهى، جلست ناحية اليسار مكاني المفضل، اكتشفت نفاذ سجائري، تركت المفاتيح والقداحة فوق رخام المنضدة الأبيض، وتخطيت شارع"السكة الحديد"، كما أنني وجدت نفسي في قلب الممر، هو جسر صغير لمرور القطارات يفصل بين الحي الإفرنجي والحي العربي بالمدينة.. هنا، منذ ما يقرب من العام، كان ميدان الممر ممتلئًا بالشباب، تلامذته وأصدقائه يتجمعون، يهتفون، يغنون، يرصون أحلامهم طابقًا فوق طابق، حتى أن المكان قد تكدس بالآلاف، آلاف من البشر يهدر صوتهم مثل زلزال.

ثم بدأت الدماء، رشاشات الخرطوش والغاز والغضب، بعد أن تخطّى الممر وقف هنيهة أمام محل الحلويات الفاخر الذي قيل له أنه ملك الممثل الشهير"نور الشريف" وزوجته الشهيرة

[1]- ميدان الممر، شارعي شبين الكوم والسكة الحديد، قهوة المثلث، والثلاثيني هي أماكن بمدينة الإسماعيلية، مصر.

أيضًا"بوسي"، فتذكر المرأة التي كانت تعشقه آنئذ، تشبه"بوسي" كثيرًا في تدويرة الوجه وشدة بياضه والعينان المضيئتان، الجسد الذي قدّ من ضوء وحليب، تذكر كذلك بأنها قد قطعت علاقتها به فجأة، من دون أسباب، عندما قابلها بعد شهر وجدها قد لفت رأسها بإيشارب أزرق غامق وجسدها بثوب أسود، بالضبط بعد ثلاثة أشهر، حينما ذهب إليها في عملها بمديرية الشباب والرياضة رآها قد لفت نفسها بنقاب كامل، عيناها فقط تبصان إليه من خلف السواد، وعندما مدّ يده للسلام سحبت يدها بسرعة: لأ.. حرام.

كان لابد من العودة، لمحت دبابة ضخمة تقف أمام قسم شرطة حي ثان المواجه، جسد أسود ينظر إليَّ بعينين شريرتين والجندي فوقها يشاور لشخص ما داخل القسم، دخلت إلى قلب الممر، تخطيت الممر، بينما دماء الشهداء تفسح لي طريقًا، كمية كبيرة من الملصقات والبوسترات لرجال ملتحون ومبتسمون تغطي بقاياه – ذلك الدم – المرشوشة فوق حيطان الممر من الداخل، خرجت، محمد محروس"بائع المجلات والجرائد"يناولني جريدة الشروق فأقول له: هات واحدة L.M أبيض. أدقق في صورة المرأة فوق غلاف المجلة النسائية المعروضة في واجهة الكشك، شعرها الحر المتطاير وعيناها المتألقتان ووجهها

المبتسم، فيما رحت أعبر الشارع قاصدًا المثلث، مفاتيحي والقداحة وفنجان القهوة، عندما جلست وجدتها تجلس أمامي، المرأة فوق غلاف المجلة، هل هذا حلم؟! مددت ذراعي كاملة، فبوغتت أصابعي بالليونة وطراوة اللحم، وأحسست بطعم الدفء وشعر الحياة، تمسكت أصابعي بلحم الذراع، كانت الأشياء تسري: مشاهد الجمال المصفى في سينما العالم، الموناليزا وزهرة الخشخاش، سيمفونية بيتهفون الثانية.. أم كلثوم والسنباطي.. أدونيس.. ماركيز، كونديرا وحلمي سالم.

ثم انتفضت. أخذتني رعشة، ألم، أخذت أهذي، وقف صديقي الشاعر أمامي لحظة مبهوتًا، حينما هم بالجلوس فوق الكرسي المقابل صرخت به: حاسب.. حاسب. حتى أنني تركت كل شيء، صديقي الذاهل، مفاتيحي، القداحة (كنت قد شربت القهوة) وركضت في شارع السكة الحديد، تجاه الثلاثيني، كنت أتعثر في الجثث الملقاة في الشارع، جثث أحلام الشهداء، بينما – في البعيد – تتكاثر سحب الدخان، تلف الشارع والمدينة، كتل من السواد، فلقد كان هناك سواد.. كان سواد.

كمين

فوجئ بالأسلاك الشائكة تطوق البناية، دبابات وعربات مصفحة تقف متحفزة بالميدان، جنود يحومون حول أبوابها الحديدية العالية، تمكن من العبور بعد أن أراهم هويته واشتراكه بالنادي الثقافي، المبنى خالٍ تقريبًا على غير العادة، صعد السلالم الرخامية المؤدية إلى الدور الثاني، حيث تنعقد الندوات، لكنه كان خاليًا أيضًا، فجلس بالقاعة الكبيرة، التي تطل على الشارع، من خلال الزجاج العريض لنافذتها يتمكن من المراقبة، لا توجد عربات مسرعة ولا بشر، جو الترقب والخوف يغلف كل شئ، لمح"شريهان" تعدو مثل قطة مبللة نحو الباب، بعد هنيهة وكأغنية حزينة جلست إلى جواره، حدقت في عينيه طويلًا.. طويلًا، ثم همست:"عيناك غابتا نخيل ساعة السحر"، فاضطر أن يهمس:"قلبي بيدر.. حبك عصفور ينقر في البيدر".

علا صوتها قليلًا: شفت الكمين في الخارج.

فقال: نعم.

قالت: أنا أجمل واحدة في هذه المدينة والأكثر موهبة أيضًا.

قال: أنتِ مصابة بالشيزوفرنيا.

ثم صمت قليلًا، الآن قد تأكد من الآتي:

1- فكها الأسفل أكبر كثيرًا من فكها الأعلى، لذلك هي لابد أن تنتمي إلى عصر الإنسان الأول.

2- إن بياض جسمها – وسط الظلمة – ينتمي إلى ذلك النوع الأصلي.

3- شخصيات نسائية متنوعة تسكن جسدها.

4- روحها متوهجة، متعطشة للحظات حب مجنونة، لذلك هي محبطة بشدة، وتداري ذلك غالبًا بضحكاتها العالية المثيرة.

اشتد ظلام القاعة فجأة، فقال: فكك من هذه الترهات.

وحين همّ بإلقاء ترهاته من النافذة، لمح رجالًا ملتحين يمتطون الدراجات البخارية، ويحملون الرشاشات قادمين بسرعة جنونية من أول الشارع متجهين صوب الكمين.

السكوت ليس دائما علامة الرضا

الشمس هذا النهار قوية؛ تلسع الوجوه، أحكم من وضع الباريه فوق رأسه، الجنود – أمامه – منتصبون في صفوف متساوية من دون غطاء الرأس؛ يتصببون عرقًا، صامتين، الصمت(من جانبهم) يحل فوق المكان كخيمة محكمة، لا نأمة؛ الصحراء المحيطة ساكنة كذلك والكلاب؛ كلاب المعسكر ممددة خلف العساكر هامده ومتدلية الألسن؛ هو سعيد بهذا الصمت؛ يخطب فيهم بما يريده، فيتجسد صوته مثل أعمدة صلبة يبني فوقها ما يحلم به، جنرالًا قويًا يأمر فيطاع؛ لا أحد من صف الضباط في مقدمة الطابور يستطيع أن ينبس ببنت شفة، الجنود أصحاب النظارات والمؤهلات العليا ساكتون أيضًا، لا أحد يتمكن من الكلام، الصمت الطويل هو السائد، استمرت كلماته في الصعود وسط هذا الصمت؛ موجاته ترتطم بشاطئ أجساد الجنود المهزومين من القهر والشمس، استمر المشهد طويلًا.. طويلًا؛ حتى أن الشمس لم تكن تتحرك نحو المغيب؛ ثابتة ومسمرة في الفضاء؛ تصب جام غضبها فوق كل هذا القهر والفقر والسكوت، زمن لا يمر، والكل صامت هكذا صار الأزل موجودًا ثابتًا، في هذا المعسكر، وسط هذه الصحراء، حتى أن الجنرال لم يجرؤ

على أن يخلع الباريه، بل ظل يبني أحلامه الخاصة من دون أدنى نأمة أو صوت.

مسافر زاده الخيال

الرحلة على خطوط مصر للطيران من القاهرة إلى عمان كانت مريحة ومفرحة، وصلنا عمان ليلًا، كانت تتلألأ كعنقود عنب يركض فوق جبالها كغزلان شاردة، آه لو استكملنا هذه المتعة منها إلى بغداد، ولكن السادات كان قد تهور وزار الكنيست الإسرائيلي، فهبت الدول العربية، ومنعت استقبال الطائرات المصرية في مطاراتها، لذلك كان لزامًا علينا الذهاب إلى بغداد عبر الطريق البري، كانت سيارة الأجرة المرسيدس تتسع لسبعة ركاب، اخترقت الطريق الدولي – عمان بغداد – في تؤدة ثم في سرعة، الظلمة لم تحط بعد ورفقاء الرحلة معظمهم من المصريين، الذين يحملون أحلامًا وتصورات خاصة عن العراق، حمدت الله أنني أخيرًا تمكنت من الإفلات من الحصار المفروض عليّ في القاهرة، بعد أن أخبرني صديق بأن أمن الدولة يترصدني في الأيام الأخيرة، الطريق جديد عليَّ وطويل فأخذت ألتهم جانبيه قبل أن يحل الظلام، لم أرغب في تبادل الحديث مع أحد، ولكني كنت أغوص داخلي محاولًا التغلب على الخوف من القادم.

كانوا قد استقبلوني بترحاب بمقر القائم بالأعمال العراقية بالزمالك، ووقعوا معي عقدًا بوظيفة محاسب بوزارة الصناعة العراقية، همس لي عضو لجنة الاختبار بعد أن تناقشنا في مسائل اقتصادية وسياسية خفيفة بأنه يحجز لي مكانًا سوف أحبه، وقال لرئيس اللجنة بصوت واضح: سنرسله إلى رفاقه هناك.

طبعًا لم أفهم، ولكني استبشرت خيرًا، هأنذا أخوض وسط الظلمة، التي بدأت تملأ السماء وسوف نرى، بعد زمن طويل وثقيل وصلت السيارة إلى مدينة"الرطبة" على الحدود العراقية الأردنية، تم تفتيش السيارة ومراجعة أوراقنا، ولاحظت وسط الزحام والهرج والمرج أنّ اللافتة الكبيرة المكتوبة على واجهة المبنى الحديدي أن كلمة جمارك كتبت بالكاف بدلًا من الجيم، نصف ساعة تقريبًا قضيناها ثم انطلق السائق في سرعة، لم أكن أنوي الاستمرار معه إلى وسط بغداد حيث أن أحد أقاربي يقيم في مدخل المدينة فقررت النزول بالحي الذي يقطنه بدلًا من الذهاب وسط المدينة ثم العودة، كان قريبي قد أرسل لي بأنه يقيم في مدخل المدينة بجوار جامع أم الطبول، قال لي سائق التاكسي بأنه يعرفه وسينزلني عنده، الليل قد انتصف تقريبًا عندما نزلت، الظلمة داكنة ولا أرى شيئًا سوى أضواء السيارات التي تمرق

أمامي بسرعة، وضعت الحقيبة الكبيرة التي تحوي الملابس إلى جانبي وحملت الحقيبة"السمسونيت" بيدي وأخذت أنتظر، كان جامع"أم الطبول" ورائي والظلام أمامي، بالجهة المقابلة عبر الطريق الدولي رأيت ضوءًا خفيفًا ينطلق من كشك صغير، فكرت في عبور الشارع والسؤال، تركت الحقيبة الكبيرة فوق رصيف الشارع وفي يدي "السمسونيت". كان عليَّ لكي أعبر متفاديًا السيارات المسرعة أن أركض باتجاه الكشك وكانت هذه مخاطرة كبيرة، حيث يقف أمام الكشك جندي مسلح شاهرًا بندقيته، وهو يرى شخصًا أجنبيًا يحمل حقيبة ويركض تجاهه، رنّت في أذنيَّ ضجة تجهيز البندقية للإطلاق وصوته، وهو يصرخ بعدة كلمات لم أفهم معناها، كاد أن يطلق في اللحظة، التي وقفت فيها أمامه مباشرة ورميت الحقيبة فوق الأرض رافعًا ذراعيَّ إلى أعلى، تقطعت أنفاسي، وغمرني العرق والرعب، ولمحت معسكرًا خلف الجندي.. يبدو أنه معسكر جيش، أفقت حينما هدأ الجندي وعلق البندقية على كتفه وأخذ يخاطبني بعامية عراقية لم أكن قد عرفتها بعد فلم أفهم شيئًا، أخذ يزعق ويثرثر وأنا أحاول إفهامه بأنني أبحث عن منزل بجوار جامع "أم الطبول" القريب، حتى خرج ضابط صغير من الداخل، رمقني للحظة، وأخذته موجة ضحك غريبة، طمأنني ذلك، كان يجيد

العامية المصرية، فأفهمته ما أريد، وفي الشارع العريض أشار إلى تاكسي يمر، وتكلم مع سائقه ببضع جمل لم أفهمها، وضعت الحقيبة الكبيرة في شنطة التاكسي وحملت الصغيرة في يدي، وجلست إلى جوار السائق، حينما جلست هاجمتني رائحة ينسون غريبة، قوية ونفاذة عرفت فيما بعد أنها رائحة "العرق" المشروب الشعبي لأهل العراق، سرعان ما اكتشفت أن السائق ليس في حالة طبيعية، وأنا أعطيه الورقة بها اسم الشارع ورقم المنزل لاحظت سكره البين، ظل يلف ويدور في الحي الذي خلف الجامع حوالي نصف ساعة أو يزيد، ثم توقف فجأة وأخذ يبرطم ويشتم بعامية غريبة، فخمنت أنه يطلب الأجرة، كان معي عشرة دنانير عراقية باقية فأعطيتها له، جن جنونه، تهجم عليَّ ونزع من على كتفي البلوفر الذي وضعته على كتفي من البرد، أخذت أقاوم، وأصرخ أنا الآخر، بغتة وجدته مذعورًا.. لمحت سيارة شرطة تقف على جنب، أضواؤها الحمراء تلمع متقطعة وسط الظلام، نزل منها شرطيان، عندما عرفا أنني مصري انهالوا فوق السائق بالضرب، أعطوني البلوفر بعد أن حكيت لهم بسرعة أن السائق قد انتزعه مني، كنت أرتعش من الغضب والبرد، وبعد خمسة دقائق وجدتهما يقفان أمام منزل قريبي بعد أن كنت قد أعطيتهما اسم الشارع ورقم المنزل.

وهكذا، انصرفا بسرعة ويدي فوق جرس الباب الخشبي لحديقة بدأت تتضح وأضواء ضعيفة تسقط من الشارع والسماء تمطرني برذاذ من الندى والضوء.

مخاوف كاتب ريفيّ مغمور

شقشق الفجر، فأيقنت بأن نهايتي اقتربت، سيهجم مصطفى الحوري بنفس العصا الغليظة التي هوى بها على رأس لملوم تلك الظهيرة البعيدة في الزاروق وسط غيط القطن فشجها، واحتفظ بالعصا كأثر، ولأنها من خشب الخوخ النادر، دفنها في ركن الزريبة ونسي الأمر، كان لملوم قد هجم على أخته هانم – المسافر زوجها – ليلًا وهو عائد من قهوة العجل بعد أن اشتعل جسده نارًا إثر مشاهدته وردة وهي تغني، الولد سامي النجار هو الذي قرأ لهم القصة، التي كتبتها عن الحادث، أعرف أن مصطفى الحوري لا يجيد القراءة ولكن سامي يحب قراءة الشعر والأدب، ويتابع المجلة المحدودة التي لا يقرأها سوى القلة وهو منهم، ذات مساء حكى لهم أنني كتبت قصة هانم ولملوم مفتخرًا بأنني كابن قريتهم أنشر قصصًا في تلك المجلة، وعلى الرغم من أنني قد لمحت في تلك القصة بأن وردة الجزائرية وأحمد العجل صاحب المقهى الذي وضع التلفزيون نصر 23 بوصة في وسط قاعة المقهى، وترك وردة تكزّ على أسنانها ووجهها الأبيض ورقبتها الطويلة المثيرة تلمع وسط ظلمة القاعة وبأن لملوم ليس مخطئًا لدرجة أن مصطفى يعاقبه بهذا الشكل، إلا أن سامي قد

أخبرهم بأنني ذكرت اسم أخته واسم المعتدي عليها، والأنكى من ذلك اسم قريتنا، وبذلك لابد أن ينتقم مني، وصلتني أخبار رغبته في الانتقام، فلزمت عملي بالمدينة المركز، وخشيت النزول إلى قريتي زمنًا طويلًا، أخبارهم أستقيها من الفلاحين، حين يأتون إلى المركز لقضاء حاجتهم، وتظل أشباحهم تطاردني مع تسلل التغيرات الكارثية التي حلت بهم، استبدال بيوتهم الطينية القديمة ببيوت من الأسمنت المسلح المبنية بعرق ودم أبنائهم العائدين من الخليج، ثم استبدالهم هم أنفسهم بأناس آخرين يملؤهم الشر والضغينة وشبح مصطفى يطاردني دون سبب منطقي واحد، تأكدت بأنني لن أتمكن من الكتابة عنهم بعد ذلك أبدًا ولابد من الذهاب إلى هناك حتى أطل على بيتي الوحيد المنزوي بأحد أطراف القرية مختبئًا بشجرة الجميز العجوز، التي ربما انهارت الآن وذبلت، وذهبت، ذهبت ليلًا، بيتي ما زال قائمًا، حزينًا، خاويًا بعد موت الأب والأم وذهاب الإخوة، محاصرًا بكتل الأسمنت التي استعمرت الغيطان الشاسعة المحيطة بها سابقًا، الجميزة العتيقة أخذت تتأملني في دهشة، وأنا أتسلل داخلًا في هدوء، مثل امرأة عجوز بالكاد ترى ابنها العائد بعد غيبة طويلة، العفاريت والأشباح التي كانت تسكنها زمان، وكانت ترعبني ليلًا، لابد أنها قد انصرفت، فقط شبح مصطفى الحوري هو الذي

يطاردني، قضيت الليلة بطولها جالسًا في "الفرانده" من دون أن أشعل ضوءًا، فقط ضوء القمر يحيط جسدي في نور شفيف، وعلى حافة الترعة المارة أمام البيت كانت جوقة الضفادع تعزف لحن نقيقها المتواصل، وأنا متيقن أنني أخطأت بذكر أسمائهم في قصتي، وبأن مصطفى سوف يطب عليَّ حالاً كالقدر المستعجل، ويشج رأسي مثلما فعلها مع لملوم، فأخذت أدخن وأدخن، وقد قررت عدم الكتابة عنهم أبدًا، الخوف يتملكني، وتفزعني فكرة أنني جبان، تسيطر عليَّ الأوهام والمخاوف من دون معنى، هكذا مضت الليلة، وغاب القمر وبدأت العصافير تزقزق فوق الجميزة بعد أن صمتت الضفادع، والفجر بدأ في الطلوع وصوت مؤذن الجامع يصلني، ويهزني، وهذه هي الشمس تفرش "الفرانده" ومصطفى لم يأت ليضع حدًا لنهايتي، فقط صم أذني صوت صراخ كلب آت من بعيد، سرعان ما تبعته كتيبة كاملة من الكلاب تهوهو بصوت صارخ.. مقبلة نحوي.

مساء مر أيها المتوسط

هذا هو شاطئ الإسكندرية يتمدد أمامي، الرمال تحتي والأمواج البعيدة تحتضن أشعة الشمس الغاربة في حنو، المتوسط هو المتوسط، أنا رابض فوق كرسيَّ الذي يدفن نصفه في الرمل، سيور قماشه العريضة في ظهره تنغرس في ظهري العاري، أنظر إلى البعيد، عشرات الأمتار أمامي فارغة بعد أن بدأ المصطافون يلمون شماسيهم وبقايا أكلهم ولعب أطفالهم، فرأيته عن بعد، بعيدًا جدًا لا أرى سوى لمعانه، شيء كقبضة اليد، نائم فوق الشاطئ في سكون بهرني لمعانه، والأشعة الأخيرة تمسحه قبل نزولها إلى البحر، فكرت بأنه قد يكون قنديل بحر ميت قذفته الأمواج، لكنه بدأ يخاتلني، يتشكل أشكالًا غريبة مجهولة، ثم بدأ يكبر ويتضخم في حجم نجفة كريستال معلقة في الفراغ، دخلت إلى ذاتي وبدأت كعادتي اليومية أفتح باب الذكريات، عطل اندفاع خيالاتي وأحلامي زعيق النوارس التي مرت بغتة، دائمًا هذه المسافة الهائلة بين ما أتخيله وأحلم به وبين الواقع المخالف تماماً شديد الكآبة الذي اصطدم به حين ألقاه فدائمًا ما يحدث ذلك عندما أهم بفعل شيء ما، مثلًا: هذه المرة.. عندما دعتني الإسكندرية إليها، تخيلت البحر، الموجات المتدافعة تحملني وأنا أعوم على ظهري أتأمل سماء الإسكندرية المدهونة بالأزرق،

سوف أقابل أصدقائي القدامى، نسهر كالعادة في – إيليت – ونشرب البيرة بينما السيدة اليونانية العجوز صديقة الشاعر "كافافيس" تتأملنا في رفق، تشير إليَّ وتقول: أنت تشبهه تمامًا، عندما بدأ الأصدقاء في الضحك أكملت: روحك تشبه روحه.. أنتم لا تعرفون أنني قادرة على رؤية الأرواح، مثلما ترون أنتم الأجساد، ثم تغيب قبل أن أصرخ فيها: أنا لا أكتب الشعر.

عندما ذهبت إلى شارع صفية زغلول، لم أتمكن من العثور على – الإيليت – كانوا قد حولوه إلى كافيه حديث ومطعم ممنوع به المشروبات الروحية، وحين هاتفت أصدقائي اعتذروا لوجودهم خارج المدينة، فأتيت هنا وحدي، أدفن نفسي في الرمل الدافئ، عندما لمع ذلك الشئ بقوة، كانت أعمدة الكهرباء على الكورنيش قد أضاءت فزاد بريقه وازداد لمعانًا، رأيتها – صديقتي الغاربة – تتحرك بداخله كأنها تتحرك في كهف، تحمل الجردل والفرشة وتقوم بدهان السماء بالأزرق، المريلة التي ترتديها قد لوثتها الألوان، بينما تقفز من عينيها الواسعتين موهبتها الأنثوية اللعوب كأنها الملكة "كليوباترا" بكل ما تحمله من شبق ورغبة في الخلق، كانت تستند على سور الكورنيش ووجهها الجميل يحدق في البحر وذراعاها الحران يطلعان وينزلان، وهي تحمل الفرشاة منهمكة في تلوين السماء التي لن تطالها أبدًا.. شوقها الذي لن يتحقق في القبض على كل "التستسرون" السائل في أجساد

الرجال التي تحلم بها دائمًا، فناديت عليها بقوة: كليوباترا.. كليوباترا.. ردد الهواء البارد النداء لكنها تجاهلتني تمامًا وقفذت إلى البحر مثل جنية تعود إلى ديارها

كان ذلك الشيء قد تضاءل لكنه لم يفقد لمعانه، ففكرت في المغامرة، التي أفتقدها طوال حياتي السابقة، سأذهب إليه، وأعاينه عن قرب، ذلك الذي بهرني منذ قدومي، وحلمت بما يحتويه من كنوز وأصدقاء، المسافة عشرات الأمتار تقريبًا والشاطئ شبه خال الآن، سينهكني الرمل قليلًا لكن لابد من المغامرة.

كانت الرغبة جارفة في أن أعرف فلبست الشبشب وقمت، بخطوات سريعة في البداية، ثم بدأ التعب يحل لكن رغبتي في الرؤية جعلتني أتحمل. الذي أدهشني أنه كلما اقتربت من ذلك الشئ ينطفئ قليلًا قليلًا حتى أصبح مظلمًا تمامًا، وعندما انحنيت والتقطه، وجدته باردًا مبللًا، ضئيلًا، ومهترئًا وحقيرًا ومظلمًا، كاذبًا، خائنًا، مدعيّ، مجرد كيس بلاستيكي ملئ بالماء تركه طفل ما على الشاطئ.

السيرة الذاتية للكاتب

مواليد محافظة الدقهلية، حاصل على بكالوريوس تجارة في جامعة القاهرة، يعيش بمدينة الإسماعلية منذ 1984م.

الإصدارات

- أصوات في الليل، مجموعة قصصية، عن دار الثقافة الجديدة، القاهرة، 1979م
- أخطاء صغيرة، مجموعة قصص عن ثقافة الإسماعيلية 1995م، طبعة ثانية عن الهيئة العامة للكتاب، مكتبة الأسرة 2003م.
- عدة أسباب للقسوة، طبعة أولى عن أدب الجماهير 1997م، طبعه ثانية عن دار نشر المحروسة 2009م.
- أن تكون في نجريللي، رواية عن مركز الأهرام للنشر، سلسلة روايات الأهرام 2015م.
- القصة والرواية في الإسماعيلية، كتاب نقدي عن هيئة قصور الثقافة 2007م.

المحتويات

الإهداء 5
الجزء الأول 7
حكايةُ العضلة القابضة 7
متتالية قصصية 7
الجزء الثاني 45
ما لم تقله الحقوقية 45
الجزءالثالث 69
إمكانية طرح الأطفال 69
هذا هو البحر 71
إمكانية طرح الأطفال 73
حزن في الحديقة 75
المغنية الصلعاء 79
مع الاعتذار ليوجين يونسكو 79
ما أظنه عن الديوك 82
إثم أول 82
إثم ثان 83
إثم ثالث 84
الجزء الرابع 87
مساءات مرة 87
الموتى لا يخافون الملائكة 89

أنثى وحيدة ترفض الطيران 93
كأنه يوسف 96
أغنية على الممر 97
السكوت ليس دائما علامة الرضا 102
مسافر زاده الخيال 104
مخاوف كاتب ريفيّ مغمور 109
مساء مر أيها المتوسط 112
السيرة الذاتية للكاتب 115

مركز ليفانت للدراسات الثقافية والنشر
دار نشر - دراسات - استشارات - دورات تدريبيّة
44 شارع سوتير، أمام كلية حقوق الإسكندرية، مصر
موبايل : 01018081590 هاتف : 034830903
بريد إلكتروني : levant.egsy@gmail.com
موقع إلكتروني : www.levantcenter.net
مركز ليفانت أحد فاعليات شركة ليفانت لتنمية الموارد البشريّة
ش. د. م. م. وفق قانون 159 لسنة 1981م ولائحته
ب ض : 545/584/507 - س ت : 9882

يهدف المركز لإقامة دورات وورشات عمل وندوات ومحاضرا،ت ويستثمر في تطوير الموارد البشريّة وتنميتها، ويقيم دورات ثقافية وتعليمية متنوّعة، ويهتمّ بإعداد باحثين في مجال الدراسات الثقافيّة وعلم الكوديكولوجيا وتحقيق النصوص التراثيّة، والاهتمام بأصحاب المواهب في الكتابة السرديّة والمسرح والسينما، وتدير إدارة المركز موقعًا إلكترونيًّا شاملاً نشاطات المركز كلّها، علاوة على إتاحته تحميل الكتب والمقالات والفيديوهات المختلفة مجانيًّا، وعبر سوق كتب إلكترونيّ وورقيّ للجديد بأسعار منافسة، كما أنّ المركز ينشر المقالات والكتب ورقيًا وإلكترونيًّا وفق عقد مع أيّة مؤسسة أو دار نشر أو مؤلّف إفراديًّا.

رقم الإيداع : 9503 /2020

الترقيم الدوليّ: 978-977-6815-09-4